المختلف في نبوتهم في ضوء الكتاب والسنة

إعداد

الدكتور عبد العزيز رشيد الأيوب
الأستاذ المساعد في كلية التربية الأساسية
التابعة للهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب
بدولة الكويت

من ١٣١٩ إلى ١٤٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، مقدر الأقدار، مصرف الأمور، مكور الليل على النهار، تبصرة لأولي القلوب والأبصار، الذي أيقظ من خلقه من اصطفاه فأدخله في جملة الأخيار، ووفق من اجتباه من عبيده فجعله من الأبرار، وبصر من أحبه فزهدهم في هذه الدار، فاجتهدوا في مرضاته والتأهب لدار القرار، واجتناب ما يسخطه والحذر من عذاب النار، وأخذوا أنفسهم بالجد في طاعته وملازمة ذكره بالعشي والإبكار، فاستنارت قلوبهم بلوامع الأنوار. أحمده أبلغ الحمد على جميع نعمه، وأسأله المزيد من فضله وكرمه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد إمام الأنبياء والمرسلين، أفضل المخلوقين، وأكرم السابقين واللاحقين، المبعوث رحمة للعالمين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على صراطه المستقيم المنير إلى يوم الدين.

أما بعد:

فمن السنن الإلهية إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام المزودة بالكتب المنزلة لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، وهو طريق الحياة الذي يلائم خلقهم وطبيعتهم وسائر وظائفهم الإنسانية، ويضمن لهم عدم الوقوع في مهاوي الهلاك، ويؤمنهم ضد الضلال في بَيْداء الظنون والأوهام، ويهديهم إلى النُظُم التي تكفل لهم التمتع بحياة رغدة مليئة بالسعادة والهناءة، قال تعالى: ﴿قُلنَا اهبِطُوا مِنهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَن تَبعَ هُدَايَ فَلَا خَوفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحزَنُونَ﴾(1)، وقال سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأتِيَنَّكُم مِنِّي هَدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشقَى﴾(2).

---

(1) سورة البقرة: ٣٨.

(2) سورة طه: ١٢٣.

لذا أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام على توالي القرون والعصور يبينون للناس سبل الرشاد، ويمدونهم بالتعاليم التي تقوى عزيمتهم، ويزودونهم بالأفكار الصالحة التي يستطيعون أن يهتدوا بهديها، والتي تساعدهم على التمييز بين الظلام والنور، وبين الهدى والضلال، وبين الطريق المستقيم والطريق المعوج الذي يؤدي إلى الهلاك والفشل والدمار. ومن هنا كان الإيمان بالرسل والأنبياء عليهم السلام أصل من أصول الدين، ولا يتم إيمان أحد إلا بالإيمان بجميعهم على سبيل الإجمال، وبمن عرفنا اسمه منهم على وجه التفصيل.

وقد ذُكِر في بعض الأحاديث بيان عدد الأنبياء والرسل عليهم السلام، منها: ما جاء في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟، قال: "مائة ألف وعشرون ألفًا"، قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟، قال: "ثلاث مائة وثلاثة عشر جمًّا غفيرًا"[1]. لكن ذكر بعض العلماء أن الأولى أن لا يقتصر عددهم على هذا؛ لأن خبر الواحد على تقدير اشتماله على جميع الشرائط لا يفيد إلا الظن، ولا يعتبر إلا في العمليات دون الاعتقادات، وها هنا حصر عددهم يخالف ظاهر قول المولى عز وجل: ﴿وَلَقَد أَرسَلنَا رُسُلًا مِّن قَبلِكَ مِنهُم مَن قَصَصنَا عَلَيكَ وَمِنهُم مَن لَم نَقصُص عَلَيكَ﴾[2]، ويحتمل أيضًا مخالفة الواقع، وإثبات نبوة من ليس بنبي إن كان عددهم في الواقع أقل مما ذكر، ونفي النبوة عمن هو نبي إن كان أكثر، فالأولى عدم التنصيص على عدد[3].

ومن جانب آخر علينا أن نؤمن تفصيلًا بمن سمّى الله جل جلاله في كتابه منهم، وهم خمس وعشرون: آدم ونوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وإدريس وذو الكفل وداود وسليمان وأيوب ويوسف

([1]) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٧٦/٢، برقم: (٣٦١).

([2]) سورة غافر: ٧٨

([3]) انظر: شرح المقاصد ١٩٨/٢، هداية المريد لجوهرة التوحيد ٦٧٢/١.

ويونس وموسى وهارون وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم. وقد ذكرهم الشاعر في قوله:

في ﴿وَتِلكَ حُجَّتُنَا﴾ منهم ثمانية   من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا   ذو الكفل آدم بالمختار قد خُتِموا

وأما ما عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بِهم إجمالًا على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم، دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم، فإن ذلك مما اختص الله سبحانه بعلمه؛ قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَد قَصَصنَٰهُم عَلَيكَ مِن قَبلُ وَرُسُلًا لَّم نَقصُصهُم عَلَيكَ﴾[1].

وهناك من الأشخاص من اختلف العلماء في نبوتهم، سأذكرهم وأحقق النظر في اختلافهم هذا، فهو لب هذا البحث ومادته، وأرجح ما ظهر لي بالدليل، ولن أناقش هنا من اختلف في نبوتهم إلا من ذُكِر في الكتاب والسنة، أما من اختلف في نبوته ولم يذكر فيهما فلن أذكره هنا، لأن هذا الاختلاف لا يعتد به. وأود أن أشير إلى أن اختلافهم هنا لا يُقطع فيه بأن هذا القول هو الصواب، والآخر هو الخطأ، ولا يُعدُّ قول المخالف ضلالًا وابتداعًا في الدين، بل غاية الأمر أن يُقال: هذا القول راجح، وذاك القول مرجوح، وهذا أصح من ذاك.

وقد نظم جلال الدين السيوطي في بعض من اختلف في نبوته، فقال:

واختلفت في خضر أهل النقول   قيل نبي أو ولي أو رسول

لقمان ذي القرنين حواء مريم   والوقف في الجميع رأي المعظم

ويعتبر هذا البحث بِكْر، لم يتطرق إليه أحد من الباحثين المعاصرين – فيما أعلم – على وجه التفصيل، وهو محاولة تعيين وإثبات من اختلف في نبوته وبيان

---

(1) سورة النساء: ١٦٤.

أقوال علماء الإسلام في ذلك والنظر في أقوالهم وأدلتهم، ثم أذكر الرأي الذي أميل إليه، مبينًا الأدلة التي بنيت عليها هذا الرأي، وهو ما جعلني لا أحيد عن تفسير وتأويل العلماء للآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتعلق بهذا الموضوع، ورأيتُ أن أذكر الأخبار التي ذكرها الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم عن أي واحد منهم، وأن أقصُرَ البحث على ذلك.

الخطة العامة للبحث:

قسمتُ البحث إلى مقدمة، واثني عشر مبحثًا، وخاتمة.

المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع، ودواعي اختياره، وخطة البحث فيه.

المبحث الأول: في بيان الاختلاف في نبوة ذي الكفل.

المبحث الثاني: في بيان الاختلاف في نبوة لقمان.

المبحث الثالث: في بيان الاختلاف في نبوة ذي القرنين.

المبحث الرابع: في بيان الاختلاف في نبوة الخضر.

المبحث الخامس: في بيان الاختلاف في نبوة عزير.

المبحث السادس: في بيان الاختلاف في نبوة الأسباط.

المبحث السابع: في بيان الاختلاف في نبوة خالد بن سنان العبسي..

المبحث الثامن: في بيان الاختلاف في نبوة أصحاب الكهف.

المبحث التاسع: في بيان الاختلاف في نبوة بلعم بن باعوراء.

المبحث العاشر: في بيان الاختلاف في نبوة مريم بنت عمران.

المبحث الحادي عشر: في بيان الاختلاف في نبوة أم موسى.

المبحث الثاني عشر: في بيان الاختلاف في نبوة آسية امرأة فرعون.

الخاتمة: وتحتوي على أهم النتائج التي توصلتُ إليها في هذه الدراسة.

والله تعالى أسأل الإعانة والسداد، وأن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يهديني إلى طريق الخير والرشاد، هو ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

الاختلاف في نبوة ذي الكفل

ذو الكفل[1]: هو ابن عم اليسع أو بشر بن أيوب، اختلف في لقبه هذا، فقيل: فر إليه من القتل مائة نبي من بني إسرائيل فآواهم وكفلهم، وقيل: كفل لعمل رجل صالح كان يصلى كل يوم مائة صلاة، وقيل: إن اليسع لما كبر قال: لو استخلفت رجلًا على الناس حتى أنظر كيف يعمل، فقال: من يتكفل لي بثلاث: بصيام النهار وقيام الليل وألا يغضب وهو يقضي؟! فقال رجل من ذرية العيص: أنا، فرده ثم قال مثلها من الغد، فقال الرجل: أنا، فاستخلفه فوفى، فأثنى الله تعالى عليه، فسمي ذا الكفل، لأنه تكفل بأمره، قاله من علماء التفسير أبو موسى ومجاهد وقتادة.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: ما كان ذو الكفل بنبي، ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح، يصلي كل يوم مائة صلاة، فتوفي فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل. وقال كعب: كان في بني إسرائيل ملك كافر، فمر ببلاده رجل صالح، فقال: والله إن خرجت من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام، فعرض عليه فقال: ما جزائي؟ قال: الجنة – ووصفها له – قال: من يتكفل لي بذلك؟ قال: أنا، فأسلم الملك، وتخلى عن المملكة، وأقبل على طاعة ربه حتى مات، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر وفيها رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض: إن الله قد غفر لي وأدخلني الجنة ووفى عن كفالة فلان، فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الأيمان، ويتكفل لهم بما تكفل به للملك، ففعل ذلك فآمنوا كلهم، فسمي ذا الكفل. وقيل: كان رجلًا عفيفًا يتكفل بشأن كل إنسان وقع في بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه،

---

(1) انظر في أخباره: تفسير الماتريدي ٦٣٧/٨، تفسير الجلالين ٤٢٩/١، تفسير الإيجي ٣٢/٣، التفسير المظهري ١٨٦/٨، فتح البيان ٥٥/١٢.

وقيل: سمي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له في سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه.

وروى الطبري وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلًا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل، فجمع الناس فقال: من يتقبل لي بثلاث أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا، فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب، قال: نعم، قال فردّهم ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر، فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال: أنا، فاستخلفه، قال: فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان فأعياهم ذلك، فقال: دعوني وإياه، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة، فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقص عليه، فقال: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا حتى حضر الرواح وذهبت القائلة، وقال: إذا رحلت فأتني آخذ لك بحقك.

فانطلق وراح فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره، فقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدق الباب فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ الكبير المظلوم، ففتح له، فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتني؟! فقال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك، وإذا قمت جحدوني، قال: فانطلق فإذا رحت فأتني، قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظر فلا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام، فإني قد شق عليّ النوم، فلما كان تلك الساعة، جاء فقال له الرجل: وراءك وراءك، فقال: إني قد أتيته أمس، فذكرت له أمري، فقال: لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحدًا يقربه، فلما أعياه نظر، فرأى كوة في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل، قال: فاستيقظ الرجل، فقال: يا فلان، ألم آمرك؟! قال: أما من قبلي، والله فلم تؤت فانظر من أين

أتيت؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه، فقال: أعدو الله! قال: نعم، أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبنك، فعصمك الله مني، فسماه الله ذا الكفل، لأنه تكفل بأمر فوفّى به.

وقد ذكر بعضهم أن ذا الكفل هو زكريا عليه السلام، وقيل: يوشع، وقيل: إلياس، ثم قالوا: خمسة من الأنبياء سماهم الله تعالى باسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس وذو الكفل، عيسى والمسيح، يونس وذو النون، محمد وأحمد عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما عن نبوته[1] فقد قال أبو موسى الأشعري ومجاهد: ذو الكفل لم يكن نبيًّا، ولكن كان عبدًا صالحًا وحكمًا مقسطًا عادلًا، وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيه أمرهم، ويقضي بينهم بالعدل، فسمى ذا الكفل. وروى ابن أبي حاتم عن كنانة بن الأخنس، قال: سمعت الأشعري – يعني أبا موسى رضي الله عنه – وهو على هذا المنبر يقول: ما كان ذو الكفل نبيًّا، ولكن كان رجل صالح، يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفّل له ذو الكفل من بعده يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل، وقال الحسن البصري والأكثرون: إنه من الأنبياء عليهم السلام، وذكر الحسن أنه نبي قبل إلياس، ووقف ابن جرير الطبري في ذلك.

وقد استدل القائلون بنبوته بثلاثة وجوه:

الأول: أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقبًا، وأن يكون اسمًا، والأقرب أن يكون مفيدًا، لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب، والكفل هو النصيب، والظاهر أن الله تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم، فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب، فهو إنما سمي بذلك؛ لأن عمله وثواب عمله كان ضعف

---

(1) انظر اختلاف العلماء في نبوته: أعلام النبوة ٦٦/١، تفسير الرازي ١٧٧/٢٢، المنتظم ٣٨٨/١، تاريخ دمشق ٣٧٠/١٧.

عمل غيره، وضعف ثواب غيره، ولقد كان في زمنه أنبياء على ما روي، ومن ليس بنبي لا يكون أفضل من الأنبياء.

الثاني: أن الله تعالى قرن ذكره بذكر إسماعيل وإدريس عليهما السلام، والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم، وذلك يدل على نبوته.

الثالث: أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء، فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبي.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[١]، ذكر العلماء أن المعنى منها: القيام بأمر الله تعالى، واحتمال الأذى في نصرة دينه، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَدخَلنَاهُم فِي رَحمَتِنَا﴾[٢]، قال مقاتل: الرحمة: النبوة، وقال آخرون: بل يتناول جميع أعمال البر والخير. وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه: أن الله تعالى يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء، وأنه أوصى إلى ولده حومل، وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب، وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل، ومات ابنه هذا وكان نبيًّا فيما يزعمون، وكان عمره من السنين خمسًا وسبعين.

ولنذكر ها هنا قصة ذي الكفل؛ إذ زعم بعضهم إنه ابن أيوب عليه السلام، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسمَاعِيل وَإِدرِيس وَذَا الكِفلِ كُلٌّ مِنَ الصَابِرِينَ. وَأَدخَلنَاهُم في رَحمَتِنَا إِنَّهُم مِنَ الصَالِحِينَ﴾[٣]، وقال تعالى بعد قصة أيوب في سورة أخرى: ﴿وَاذكُر عِبَادَنَا إِبرَاهِيمَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ أُولِي الأَيدِي وَالأَبصَار. إِنَّا أَخلَصنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكرَى الدَّار. وَإِنَّهُم عِندَنَا لَمِنَ المصطَفَين الأَخيَار. وَاذكُر إِسمَاعِيلَ وَاليَسَع وَذَا الكِفلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخيَارِ﴾[٤]، فالظاهر من ذكره

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٥.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٦.

(٣) سورة الأنبياء: ٨٥ – ٨٦.

(٤) سورة ص: ٤٥ – ٤٨.

في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام، وهذا هو المشهور[١].

وأما ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عند أحمد[٢] وغيره[٣] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله" – وفيه قصة إتيانه امرأته ثم تركها لما وجدها خائفة، ثم أقسم أنه لا يعصي الله فمات من ليلته، وأصبح مكتوبًا على بابه: قد غفر الله للكفل – فقد قال ابن كثير[٤]: إنه حديث غريب جدًّا، وفي إسناده نظر، والحديث يدور على رجل يقال له: "سعد" مولى طلحة وهو مجهول، وقد جاءت له طريق آخر غير محفوظ، فالأقرب أنه موقوف، وأنه من الإسرائيليات، ولو صح الحديث لكان الكفل هذا غير ذي الكفل النبي.

والذي يتعين علينا قوله بعد ما ذكرناه بشأن ذي الكفل، أن نرجح رأي الأكثرين الذين أثبتوا نبوته، وأن الله تعالى قرن ذكره – كما في آيات سابقة – بذكر

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١/٢٥٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/٢٣، برقم:(٤٧٤٧).

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره ١١/٣٢٧: أن الترمذي الحكيم أخرجه في "نوادر الأصول" وغيره من حديث عبد الله بن عمرو: "كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله، فاتبع امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: من هذا العمل، والله ما عملته قط، قال: أأكرهتك؟! قالت: لا، ولكن حملني عليه الحاجة، قال: اذهبي فهو لك، والله لا أعصي الله بعدها أبدًا، ثم مات من ليلته فوجدوا مكتوبًا على باب داره: إن الله قد غفر لذي الكفل". وأخرجه الترمذي في سننه بلفظ: "كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك، أأكرهتك؟! قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلته، اذهبي فهي لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبدًا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله قد غفر لذي الكفل". ثم قال: هذا حديثٌ حسن.

(٤) في البداية والنهاية ٢/٢١١.

إسماعيل وإدريس عليهما السلام، والغرض من ذلك ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم، وذلك يدل على نبوته ومكانته عند ربه جل وعلا.

المبحث الثاني

الاختلاف في نبوة لقمان

قيل في اسمه عليه السلام[١]: هو لقمان بن عنقاء بن سدون، ويقال: لقمان بن ثاران، حكاه السهيلي عن ابن جرير الطبري والقتيبي[٢]، فهو اسم أعجمي، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وقيل: هو اسم عربي، فهو ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون، والأول أظهر. قال السهيلي: كان نوبيًّا من أهل أيلة، واسم أبيه: عنقا بن شيرون، وقال غيره: هو ابن باعور بن ناحر بن آزر، فهو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وذكر وهب بن منبه: أنه كان ابن أخت أيوب عليه السلام، وقيل: ابن خالته، وحكي أنه كان مولى لقوم من الأزد[٣].

وقد اختلف السلف فيه، هل كان نبيًّا، أو عبدًا صالحًا من غير نبوة؟ وهذا الاختلاف سببه الاختلاف في معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَد آتَينَا لُقمَانَ الحِكمَةَ﴾[٤]، فلهم في معنى الحكمة التي أوتيها قولان: أحدهما: الفهم والعقل والفقه في الدين والإصابة في القول من غير نبوة ولا وحي، قاله سعيد بن المسيب ومجاهد وقتادة وغيرهم. والثاني: النبوة، قاله الشعبي وعكرمة والسدي، والقول الأول أصح، فالمشهور عن الجمهور أنه كان حكيمًا وليًّا ولم يكن نبيًّا. وقد ذكره الله تعالى في القرآن فأثنى عليه، وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده الذي هو أحب الخلق إليه،

---

(١) انظر في أخبار لقمان الحكيم واختلاف العلماء في نبوته: تفسير الطبري ١٣٤/٢٠، الاستذكار لابن عبد البر ٣٥٢/٢٧، زاد المسير لابن الجوزي ٤٣٠/٣، تفسير الماوردي ٣٣١/٤، تفسير ابن كثير ٣٣٣/٦، فيض القدير ٤٧٣/٣.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١٤٧/٢.

(٣) انظر: فتح الباري ٤٦٦/٦.

(٤) سورة لقمان: ١٢.

وهو أشفق الناس عليه، فكان من أول ما وعظ به أن قال: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشرِك بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ﴾[١]. فنهاه عنه وحذره منه.

واختلف في جنسه على قولين: أحدهما: أنه كان من النوبة قصيرًا أفطس، قاله جابر بن عبد الله رضي الله عنه. الثاني: كان عبدًا حبشيًّا، قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وقال مجاهد: كان غليظ الشفتين مشقّق، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا، وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، قلت لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيرًا أفطس من النوبة. وعن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة. وقال الأوزاعي: حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسود نوبيًّا ذا مشافر[٢].

وعن خالد الربعي قال: كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، فمكث ما شاء الله ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما، فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا، وقال شعبة، عن الحكم، عن مجاهد: كان لقمان عبدًا صالحًا، ولم يكن نبيًّا. وقال الأعمش: قال مجاهد: كان لقمان عبدًا أسود عظيم الشفتين، مشقق القدمين. وعن مجاهد: كان لقمان الحكيم

---

(١) سورة لقمان: ١٣.

(٢) أورد المناوي في فيض القدير ٤٧٣/٣، برقم: (٤٠١٥) حديث: "خير السودان ثلاثة: لقمان وبلال ومهجع".

عبدًا حبشيًّا غليظ الشفتين، مصفح القدمين، قاضيًا على بني إسرائيل. وذكر غيره: أنه كان قاضيًا على بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام.

وقال ابن جرير الطبري: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو بن قيس قال: كان لقمان عليه السلام عبدًا أسود، غليظ الشفتين، مصفح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم، فقال له: ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا، قال: نعم، فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألست عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني.

فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبيًّا، ومنها ما هو مشعر بذلك؛ لأن كونه عبدًا قد مسه الرق ينافي كونه نبيًّا؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها، ولهذا كان رأي جمهور السلف على أنه لم يكن نبيًّا، وإنما ينقل كونه نبيًّا عن عكرمة إن صح السند إليه، فإنه رواه الطبري وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة أنه قال: كان لقمان نبيًّا، قال ابن كثير: وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف[1].

واختلف في صنعته على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان خياطًا بمصر، قاله سعيد بن المسيب. الثاني: أنه كان راعيًا فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال: ألست عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله وأدائي الأمانة، وصدق الحديث وتركي ما لا يعنيني ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر. الثالث: أنه كان نجارًا، فقال له سيده: اذبح لي شاة وأتني بأطيبها مضغتين فأتاه باللسان والقلب، فقال له: ما كان فيها شيء أطيب من هذين فسكت، ثم أمره

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٦/٣٣٣.

فذبح له شاة، ثم قال: ألق أخبثها مضغتين فألقى اللسان والقلب، فقال له: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت باللسان والقلب، فقال: إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا، قاله خالد الربعي.

واختلف في زمانه على قولين: أحدهما: أنه كان فيما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. الثاني: أنه ولد كوش بن سام بن نوح، ولد لعشر سنين من ملك داود عليه السلام، وبقي إلى زمن يونس عليه السلام.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنِ اشكُر للهِ﴾ يعني: نعم الله تعالى، وجهان: أحدهما: معنى الكلام: ولقد آتيناه الحكمة وآتيناه الشكر لله تعالى، قاله المفضل. الثاني: آتيناه الحكمة لأن يشكر لله تعالى، قاله الزجاج.

وفي شكره أربعة أوجه: أحدها: هو حمده على نعمه. الثاني: هو ألا يعصيه على نعمه. الثالث: هو ألا يرى معه شريكًا في نعمه عليه. الرابع: هو طاعته فيما أمره.

ويقال: إنه كان قاضيًا على بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام، وما روي من كونه عبدًا مسه الرق ينافي كونه نبيًّا؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها. وزعم بعضهم: أن لقمان هو بلعام المذكور في التوراة، وكان حكيم شعب وثني، وكان منبأ عن الله تعالى، وأغرب في تقريبه، بأن الفعل العربي وهو "لقم" معناه بالعبري بلع[1].

ولطرافة شخصيته وما نسج حولها من الأساطير نورد بعض الأقوال فيه باختصار:

قال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الله بن عياش، عن عمر مولى غفرة قال: وقف رجل على لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان، أنت عبد بني الحسحاس؟ قال: نعم. قال: أنت راعي الغنم؟ قال: نعم. قال: أنت الأسود؟ قال: أما سوادي فظاهر،

---

(1) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٢٧/٨.

فما الذي يعجبك من أمري؟ قال: وطء الناس بساطك، وغشيهم بابك، ورضاهم بقولك، قال: يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك، قال لقمان: غضي بصري، وكفي لساني، وعفة طعمتي، وحفظي فرجي، وقولي بصدق، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي ما لا يعنيني، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى. وذكر أبو الدرداء رضي الله عنه يومًا لقمان الحكيم فقال: ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال، ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلًا صمصامة سكيتًا، طويل التفكر، عميق النظر، لم ينم نهارًا قط، ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخع، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقًا نطقه إلا أن يقول: حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد، فماتوا فلم يبك عليهم، وكان يغشى السلطان، ويأتي الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي.

وعن قتادة قال: خيّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة على النبوة، قال: فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة –أو: رش عليه الحكمة– قال: فأصبح ينطق بها، قال سعيد: فسمعت عن قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيّرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إليّ بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه، ولكنت أرجو أن أقوم بها، ولكنه خيّرني، فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إليّ، قال ابن كثير: فهذا من رواية سعيد بن بشير، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحكمة تزيد الشرف شرفًا، وترفع المملوك حتى يجلس مجالس الملوك"(١)، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَد آتَينَا لُقمَانَ الحِكمَةَ﴾(٢). وقال وهب بن منبه: كان لقمان ابن أخت داود عليه السلام، وقيل: ابن خالته، وكان في زمنه، وكان داود يقول

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، برقم: (٢٧٦٩)، ١٥٢/٢.

(٢) سورة لقمان: ١٢.

له: طوبى لك أوتيت الحكمة، وصرفت عنك البلوى، وأوتي داود الخلافة وبلي بالبلية، وكان داود يغشاه ويقول: انظروا إلى رجل أوتي الحكمة ووقي الفتنة.

وقال عبد الوارث: أوتي لقمان الحكمة في مقالة قالها، فقيل: وهل لك أن تكون خليفة فتعمل بالحق؟ فقال: إن تختر لي فسمعًا وطاعة، وإن تخيّرني أختر العافية، وإنه من يبع الآخرة بالدنيا يخسرهما جميعًا، ولأن أعيش حقيرًا ذليلًا أحب إليّ من أن أعيش قويًّا عزيزًا، وقيل: كان عبدًا نجارًا، فقال له سيده: اذبح شاة وائتني بأطيب مضغتين، فأتاه بالقلب واللسان، ثم أمره بمثل ذلك وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج القلب واللسان، فقال له: ما هذا؟ فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: مر رجل بلقمان والناس مجتمعون عليه، فقال: ألست العبد الأسود الذي كنت تراعينا بموضع كذا؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني. قال: وعن لقمان أنه قال: ضرب الوالد ولده كالسماد للزرع. وقال لقمان لابنه: من يقارن قرين السوء لا يسلم، قال: ومن لا يملك لسانه يذم، يا بني كن عبدًا للأخيار، يا بني كن أمينًا تكن غنيًّا، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ولا تجادلهم، خذ منهم إذا ناولوك، وألطف بهم في السؤال ولا تفجرهم، إن ما تأذيت به صغيرًا انتفعت به كبيرًا، كن لأصحابك موافقًا في غير معصية، ولا تحقرن من الأمور صغارها، فإن الصغار غدًا تصير كبارًا، إياك وسوء الخلق والضجر وقلة الصبر، إن أردت غنى الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس.

وذكر الثعلبي المفسر أن لقمان كان من أهون مماليك سيده عليه، فبعثه مولاه مع عبيد له إلى بستانه يأتونه بشيء من ثمر، فجاءوه وما معهم شيء، وقد أكلوا الثمر وأحالوا على لقمان، فقال لقمان لمولاه: ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا فاسقني وإياهم ماء حميمًا ثم أرسلنا لنعدو، ففعل فجعلوا يتقيئون تلك الفاكهة ولقمان يتقيأ ماء، فعرف مولاه صدقه وكذبهم. وروي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمها لبسها، وقال: نعم لبوس

الحرب أنت، فقال: الصمت حكمة، وقليل فاعله، فقال له داود: بحق ما سميت حكيمًا. وقال الثعلبي أيضًا: كان لقمان مملوكًا، وكان أهون مملوكي سيده عليه، قال: وأول ما ظهر من حكمته أنه كان مع مولاه، فدخل مولاه الخلاء، فأطال الجلوس، فناداه لقمان: إن طول الجلوس على الحاجة تنجع منه الكبد، ويورث الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فأقعد هوينًا وقم، فخرج مولاه وكتب حكمته على باب الخلاء، وحكمه كثيرة مشهورة[١].

وأما قبره عليه السلام فقد قيل: إنه في قرية "صرفند" ظاهر مدينة الرملة من أعمال فلسطين، وعلى قبره مشهد. وقال قتادة: قبره بالرملة. وجاء عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: بلغني أن قبر لقمان ما بين مسجد الرملة وسوقها، وهذا إن صح عنهما فهو من الإسرائيليات.

هذا، وأخبار لقمان عليه السلام وحكمته أكثر من أن يستوعبها هذا المبحث، فحسبنا ما تقدم ذكره، وقد تبين لنا من خلال هذا العرض أنه لا دليل على نبوته، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَد آتَينَا لُقمَانَ الحِكمَةَ﴾[٢]، فلا دليل فيها البتة على نبوته؛ لأن الله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء من خلقه وإن كانوا غير أنبياء، قال تعالى: ﴿يُؤتِي الحِكمَةَ مَن يَشَاءُ﴾[٣]، ولم يذكر الله تعالى لقمان باسم النبوة ولا مع الأنبياء. قال الثعلبي: اتفق العلماء على أنه كان حكيمًا ولم يكن نبيًّا، إلا عكرمة فإنه قال: كان نبيًّا، وقد تفرّد بهذا القول[٤].

---

(١) انظر: الكشف والبيان ٣١٢/٧، تهذيب الأسماء واللغات ٧١/٢.

(٢) سورة لقمان: ١٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٩.

(٤) انظر: الكشف والبيان ٣١٢/٧، وانظر كذلك: شرح النووي على صحيح مسلم ١٤٤/٢، إعراب القرآن وبيانه ٥٣٥/٧.

المبحث الثالث

الاختلاف في نبوة ذي القرنين

بادئ ذي بدأ القول أن في ذي القرنين واسمه تنازع الناس وكثرت الأقوال حتى التناقض[1]، والخلاف فيه كثير ولا طائل تحته، وهو أحد من ملّكهم الله تعالى أمر الدنيا، وذكره في القرآن الكريم وأثنى عليه بالعدل، وأنه بلغ المشارق والمغارب، وملك الأقاليم وقهر أهلها، وسار فيهم بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط.

وقد اختلف في اسمه، فقيل: هو الإسكندر المقدوني اليوناني، وقيل: اسمه هرمس، وقيل: اسمه هرديس، وقيل غير ذلك، قال السهيلي: قيل: كان اسمه مرزبان بن مرزبة. ذكره ابن هشام، وذكر في موضع آخر أن اسمه الصعب بن ذي مرائد، وهو أول التبابعة، وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع، وقيل: إنه أفريدون بن أسفيان الذي قتل الضحاك، وفي خطبة قس: يا معشر إياد بن الصعب ذو القرنين، ملك الخافقين، وأذل الثقلين، وعمر ألفين، ثم كان ذلك كلحظة عين، ثم أنشد ابن هشام للأعشى:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا بالجنو في جدث أشم مقيما

وذكر الدارقطني وابن ماكولا أن اسمه هرمس، ويقال: هرويس بن قيطون بن رومى بن لنطى ابن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح، وعن قتادة قال: إسكندر هو ذو القرنين، وأبوه أول القياصرة، وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام. فأما ذو القرنين الثاني، فهو: اسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن مطيون بن رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل، كذا نسبه الحافظ ابن عساكر

([1]) انظر في أخباره واختلاف العلماء فيه: تفسير الطبري ٩٢/١٨، الكشف والبيان للثعلبي ١٨٩/٦، الروض الأنف للسهيلي ٨٩/٣، تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣٠/١٧، تفسير القرطبي ٤٦/١١، البداية والنهاية ١٠٢/٢.

في تاريخه، المقدوني اليوناني المصري باني إسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم، وكان متأخرًا عن الأول بدهر طويل، كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان أرطاطاليس الفيلسوف وزيره، وهو الذي قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم. وإنما نبهنا عليه، لأن كثيرًا من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرطاطاليس وزيره، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير، فإن الأول كان عبدًا مؤمنًا صالحًا، وملكًا عادلًا، وكان وزيره الخضر، وقد كان نبيًّا على ما سوف نقرره بعد ذلك. وأما الثاني فكان مشركًا، وكان وزيره فيلسوفًا، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا، لا يستويان ولا يشتبهان إلا على إنسان لا يعرف حقائق الأمور.

وشبهة من قال: إن ذا القرنين هو الإسكندر، ما أخرجه الطبري ومحمد بن ربيع الجيزي في كتاب الصحابة الذين نزلوا مصر بإسناد فيه ابن لهيعة، أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين فقال: "كان من الروم فأعطي ملكًا فصار إلى مصر وبنى الإسكندرية، فلما فرغ أتاه ملك فعرج به فقال: انظر ما تحتك، قال: أرى مدينة واحدة، قال: تلك الأرض كلها، وإنما أراد الله أن يريك وقد جعل لك في الأرض سلطانًا، فسر فيها وعلّم الجاهل وثبت العالم"، وهذا لو صح لرفع النزاع، ولكنه –كما قال ابن حجر العسقلاني – ضعيف[1].

وروى ابن مردويه والزبير في كتاب النسب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ذو القرنين عبد الله بن الضحاك بن معد بن عدنان، وإسناده ضعيف جدًّا لضعف عبد العزيز وشيخه، وقيل: اسمه الصعب، وبه جزم كعب الأحبار، وذكره بن هشام في التيجان عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا، وقال أبو جعفر بن حبيب في كتاب المحبر: هو المنذر بن أبي القيس، أحد ملوك الحيرة، وأمه: ماء السماء ماوية بنت عوف بن جشم، قال: وقيل: اسمه الصعب بن قرن بن همال، من ملوك حمير، وقال

---

(١) انظر: فتح الباري ٣٨٣/٦.

الطبري: هو إسكندروس بن فيلبوس، وقيل: فيلبس، وبالثاني جزم المسعودي، وقيل: اسمه الهميسع، ذكره الهمداني في كتاب النسب، قال: وكنيته: أبو الصعب، وهو بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، وقيل: ابن عبد الله بن قرين بن منصور بن عبد الله بن الأزد، وقيل بإسقاط عبد الله الأول، وأما قول ابن إسحاق الذي حكاه بن هشام عنه أن اسم ذي القرنين: مرزبان بن مرديه – بدال مهملة، وقيل: بزاي – فقد صرح بأنه الإسكندر، ولذلك اشتهر على الألسنة لشهرة السيرة لابن إسحاق.

قال السهيلي: والظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان: أحدهما كان على عهد إبراهيم، ويقال: إن إبراهيم تحاكم إليه في بئر السبع بالشام فقضى لإبراهيم، والآخر كان قريبًا من عهد عيسى، لكن الأشبه أن المذكور في القرآن الكريم هو الأول، بدليل ما ذكر في ترجمة الخضر عليه السلام، حيث جرى ذكره في قصة موسى عليه السلام أنه كان على مقدمة ذي القرنين، وقد ثبتت قصة الخضر مع موسى، وموسى كان قبل زمن عيسى عليه السلام قطعًا، فهذا على طريقة من يقول: إنه الإسكندر، وحكى السهيلي أنه قيل: إنه رجل من ولد يونان بن يافث اسمه هرمس، ويقال: هرديس، وحكى القرطبي المفسر تبعًا للسهيلي أنه قيل: إنه أفريدون، وهو الملك القديم للفرس الذي قتل الضحاك الجبار الذي يقول فيه الشاعر:

فكأنه الضحاك في فتكاته بالعالمين وأنت أفريدون

وللضحاك قصص طويلة ذكرها الطبري وغيره، والذي يقوي أن ذا القرنين من العرب: كثرة ما ذكروه في أشعارهم، قال أعشى بن ثعلبة:

والصعب ذو القرنين أمسى ثاويًا … بالحنو في جدث هناك مقيم

والحنو: بكسر المهملة وسكون النون في ناحية المشرق. وقال الربيع بن ضبيع:

والصعب ذو القرنين عمر ملكه … ألفين أمسى بعد ذاك رميمًا

وقال قس بن ساعدة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويًا … باللحد بين ملاعب الأرياح

وقال تبع الحميري:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلمًا ملكًا تدين له الملوك وتحشد

من بعده بلقيس كانت عمتي ملكتهم حتى أتاها الهدهد

وقال بعض الحارثيين يفتخر بكون ذي القرنين من اليمن يخاطب قومًا من مضر:

سموا لنا واحدًا منكم فنعرفه في الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتبعين وذي القرنين يقبله أهل الحجى وأحق القول ما قبلا

وقال النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي ابن الصحابي رضي الله عنهما:

ومن ذا يعادينا من الناس معشر كرام وذو القرنين منا وحاتم

ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد: أن الراجح في اسمه "الصعب"، ووقع ذكر ذي القرنين أيضًا في شعر امرئ القيس وأوس بن حجر وطرفة بن العبد وغيرهم، وأخرج الزبير بن إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن الضحاك بن عثمان، عن أبيه، عن سفيان الثوري قال: بلغني أنه ملك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان وكافران، سليمان النبي عليه السلام، وذو القرنين، ونمرود، وبختنصر، ورواه وكيع في تفسيره عن العلاء بن عبد الكريم، سمعت مجاهدًا يقول: ملك الأرض أربعة، فسماهم، وروى ابن أبي شيبة من حديث علي رضي الله عنه مرفوعًا، أنه قيل له: "كيف بلغ ذو القرنين المشرق والمغرب؟ قال: سُخِّر له السحاب، وبُسِط له النور، ومُدَّ له الأسباب"[١].

وقد أنشد بعض الحميريين في ذلك شعرًا يفتخر بكونه أحد أجداده فقال:

قد كان ذو القرنين جدي مسلما ملكًا تدين له الملوك وتحشد

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد

([١]) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الفضائل، باب: ما ذكر في ذي القرنين، برقم: (٣١٩١٥).

فرأى مغيب الشمس عند غروبها		في عين ذي خلب وثأط حرمد

من بعده بلقيس كانت عمتي		ملكتهم حتى أتاها الهدهد

واختلف في سبب تسميته ذا القرنين، فقيل: لأنه بلغ المشرق والمغرب، أخرجه الزبير بن بكار من طريق سليمان بن أسيد عن ابن شهاب أنه قال: إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها، وقيل: لأنه ملكهما، وقيل: رأى في منامه أنه أخذ بقرني الشمس، وقيل: كان له قرنان حقيقة، وهذا أنكره علي في رواية القاسم بن أبي بزة، وقيل: لأنه كان له ضفيرتان تواريهما ثيابه، وقيل: لأنه كانت له غديرتان طويلتان من شعره حتى كان يطأ عليهما، وتسمية الضفيرة من الشعر قرنًا معروف، ومنه قول أم عطية: وضفرنا شعرها ثلاثة قرون، ومنه قول جميل: فلثمت فاها آخذا بقرونها، وقيل: كانت صفحتا رأسه من نحاس، وقيل: لتاجه قرنان، وقيل: كان في رأسه شبه القرنين، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنه عمّر حتى فني في زمنه قرنان من الناس، وقيل: لأن قرني الشيطان عند مطلع الشمس وقد بلغه، وقيل: لأنه كان كريم الطرفين أمه وأبوه من بيت شرف، وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعًا، وقيل: لأنه أعطي علم الظاهر والباطن، وقيل: لأنه ملك فارس والروم، وقيل غير ذلك. وهو أحد ملوك الدنيا، كما قيل: ملوك الدنيا كلها أربعة، مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران: نمروذ وبختنصر.

وقد اختلف في ذي القرنين فقيل: كان نبيًّا، وهذا مروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وعليه ظاهر القرآن، وأخرج الحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا أدري ذو القرنين كان نبيًّا أو لا"، وذكر وهب في المبتدأ أنه كان عبدًا صالحًا، وأن الله تعالى

بعثه إلى أربعة أمم، أمتين بينهما طول الأرض، وأمتين بينهما عرض الأرض، وهي: ناسك ومنسك وتأويل وهاويل، فذكر قصة طويلة حكاها الثعلبي في تفسيره[١].

وذكر الزبير في أوائل كتاب النسب قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سأل عن ذي القرنين، قال: كان رجلًا أحب الله فأحبه، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله إليهم فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله فسمى ذو القرنين. وزاد: وناصح الله فناصحه، – وفيه: لم يكن نبيًّا ولا ملكًا –، ثم قال: وسنده صحيح سمعناه في الأحاديث المختارة للحافظ الضياء، وفيه إشكال؛ لأن قوله: "ولم يكن نبيًّا"، مغاير لقوله: "بعثه الله إلى قومه"، إلا أن يحمل البعث على غير رسالة النبوة. وقيل: كان ملكًا من الملائكة، حكاه الثعلبي، وهذا مروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه سمع رجلًا يقول لآخر: يا ذا القرنين، فقال: مه! ما كفاكم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة، ذكره السهيلي. وقد رُوِي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: كان ذو القرنين نبيًّا.

وحكى الجاحظ في الحيوان أن أمه كانت من بنات آدم، وأن أباه كان من الملائكة، قال: واسم أبيه: "فيرى"، واسم أمه: "غيرى"، وقيل: كان من الملوك، وعليه الأكثر.

وروى الحافظ ابن عساكر من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أدري أتبع كان لعينًا أم لا، ولا أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا، ولا أدري ذو القرنين كان نبيًّا أم لا"، وفيه: "ما أدري أتبع لعين هو أم لا، وما أدري أعزير نبي هو أم لا"[٢]، قال ابن كثير: وهذا غريب من هذا الوجه[٣]. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان ذو القرنين ملكًا صالحًا، رضي الله عمله وأثنى عليه

---

(١) انظر: الكشف والبيان ٦/١٩٠.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: التخيير بين الأنبياء.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٢/١٢٢.

في كتابه، وكان منصورًا، وكان الخضر وزيره. وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه، وكان عنده بمنزلة المشاور – الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم.

وقد ذكر الأزرقي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليهما السلام. وروي عن عبيد بن عمير أن ذا القرنين حج ماشيًا، وأن إبراهيم عليه السلام لما سمع بقدومه تلقّاه ودعا له ورضاه، وأن الله تعالى سخر لذي القرنين السحاب يحمله حيث أراد.

وروى الحافظ ابن عبد البر[١] عن أبي الطفيل قال: شهدت عليًّا رضي الله عنه وهو يخطب ويقول: سلوني فو الله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به، وسلوني عن كتاب الله؛ فو الله ما منه آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار، أم بسهل نزلت أم بجبل، فقام ابن الكواء وأنا بينه وبين علي رضي الله عنه، وفيه: قال: أفرأيت ذا القرنين، أنبيًّا كان أم ملكًا؟ قال: لا واحدًا منهما، ولكنه كان عبدًا صالحًا، أحب الله فأحبه الله، وناصح الله فناصحه الله، دعا قومه إلى الهدى فضربوه على قرنه، ثم دعاهم إلى الهدى فضربوه على قرنه الآخر، ولم يكن له قرنان كقرني الثور. وروى كذلك ابن عبد البر[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أدري تبع لعن أم لا، وما أدري ذو القرنين نبي أم لا، وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا"، ثم قال: زعم الدارقطني أنه انفرد عبد الرزاق بهذا الإسناد.

وبعد، فالذي يظهر لنا من خلال ما تقدم أن ذا القرنين كان عبدًا مؤمنًا وملكًا عادلًا ولم يكن نبيًّا، وهذا الرأي هو ما عليه جمهور العلماء من المفسرين والمحدثين وغيرهم، قال الحسن البصري: كان ذو القرنين ملك بعد النمرود، وكان من قصته أنه

---

(١) في جامع بيان العلم وفضله ٥٦/٢، حديث رقم: (٥٢٧).

(٢) في جامع بيان العلم وفضله ٤٦/٣، حديث رقم: (٩٨٧).

كان رجلًا مسلمًا صالحًا، أتى المشرق والمغرب، مد الله له في الأجل، ونصره حتى قهر البلاد، واحتوى على الأموال، وفتح المدائن، وقتل الرجال، وجال في البلاد والقلاع، فسار حتى أتى المشرق والمغرب، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَسأَلُونَكَ عَن ذِي القَرنَينِ قُل سأتلو عَلَيكُم مِنهُ ذِكرًا. - أي: خبرًا - إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرضِ وَآتَينَاهُ مِن كُلِّ شَيءٍ سَبَبًا﴾[١]، أي: علمًا بطلب أسباب المنازل. وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم في قوله تعالى: ﴿وَآتَينَاهُ مِن كُلِّ شَيءٍ سَبَبًا﴾[٢]، يعني: علمًا، وقال قتادة والوراق: معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قومًا إلا حدّثهم بلغتهم، والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها، فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر. وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفًا وستمائة سنة يجوب الأرض، ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وفي كل هذه المدة نظر[٣].

---

(١) سورة الكهف: ٨٣-٨٤.

(٢) سورة الكهف: ٨٤.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٢/١٢٣.

المبحث الرابع

الاختلاف في نبوة الخضر

اختلفت أقوال أهل العلم في اسم الخضر، وفي اسم أبيه، وفي نسبه، وفي نبوته، وفي تعميره[١]، فقال وهب بن منبه: هو بَلْيا، وقيل: اسمه إلياس، وقيل: اليسع، وقيل: عامر، وقيل: خضرون، والأول أثبت، ابن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفشخند بن سام بن نوح، فعلى هذا فمولده كما ذكر عنه قبل إبراهيم الخليل عليه السلام؛ لأنه يكون ابن عم جد إبراهيم، وقد حكى الثعلبي المفسر قولين في أنه كان قبل الخليل أو بعده[٢]. قال وهب: وكنيته: أبو العباس، وروى الدارقطني في الإفراد من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هو ابن آدم لصلبه، وهو ضعيف منقطع، وذكر أبو حاتم السجستاني في المعمرين أنه ابن قابيل بن آدم، رواه عن أبي عبيدة وغيره، وقيل: اسمه: أرميا بن طيفاء، حكاه ابن إسحاق عن وهب.

واختلف في اسم أبيه، فقيل: ملكان، وقيل: كلمان، وقيل: عاميل، وقيل: قابل، والأول أشهر، قالوا: وكان أبوه من الملوك، واختلفوا في لقبه، فقال الأكثرون: لأنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء، والفروة وجه الأرض، وقيل: لأنه كان إذا صلى أخضر ما حوله، والصواب الأول[٣]، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فروة، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء"[٤]. وقال الخطابي: إنما سمي الخضر خضرًا؛ لحسنه وإشراق وجهه[٥]. وكنية الخضر: أبو العباس، وهو صاحب موسى النبي عليه السلام، الذي سأل السبيل إلى

---

(١) انظر في ذلك: تفسير الطبري ٣٧٧/١٧، البداية والنهاية ٤٠/٢، الزهر النضر في أخبار الخضر ص ٢٢ وما بعدها.

(٢) انظر: الكشف والبيان ٧٥/٦.

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات ١٧٦/١، فتح الباري ٤٣٣/٦.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام.

(٥) انظر: البداية والنهاية ٣٧٩/١.

لقياه، وقد أثنى الله تعالى عليه في كتابه بقوله: ﴿فَوَجَدَا عَبدًا مِّن عِبَادِنَا آتَينَاهُ رَحمَةً مِن عِندِنَا وَعَلَّمنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلمًا﴾[1]، فأخبر الله تعالى عنه في باقي الآيات بتلك الأعجوبات، وموسى الذي صحبه هو موسى بني إسرائيل كليم الله تعالى، كما جاء به الحديث المشهور في صحيحي البخاري ومسلم، وهو مشتمل على عجائب من أمرهما. وعن إسماعيل بن أبي أويس قال: هو المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد، وحكى السهيلي عن قوم أنه كان ملكًا من الملائكة، وليس من بني آدم، وعن ابن لهيعة: كان ابن فرعون نفسه، وقيل: ابن بنت فرعون، وقيل: اسمه: خضرون بن عاييل بن معمر بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم، وقيل: كان أبوه فارسيًّا، رواه الطبري من طريق عبد الله بن شوذب.

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا، فالجمهور على أنه باق إلى اليوم[2]، قيل: لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة، وقيل: لأنه شرب من عين الحياة فحيي، وذكروا أخبارًا استشهدوا بها على بقائه إلى الآن، منها: ما حكى به ابن ظفر في تفسيره أنه كان من ذرية بعض من آمن بإبراهيم، وقيل: إنه الذي أماته الله تعالى مائة عام ثم بعثه، فلا يموت حتى ينفخ في الصور، وروى الدارقطني في الحديث المذكور قال: "مد للخضر في أجله حتى يكذب الدجال". وقال عبد الرزاق في مصنفه عن معمر – في قصة الذي يقتله الدجال ثم يحييه– : بلغني أنه الخضر[3]، وفي آخر صحيح مسلم في أحاديث الدجال أنه يقتل رجلًا ثم يحيا. قال إبراهيم بن سفيان الفقيه صاحب الإمام مسلم: يقال: إن ذلك الرجل هو الخضر. وذكر الثعلبي اختلافًا في أن الخضر كان في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام أم بعده بقليل أم بعده بكثير؟، قال: والخضر على جميع الأقوال نبي معمر محجوب

([1]) سورة الكهف: ٦٥.

([2]) انظر: الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٢٣١.

([3]) أخرجه عبد الرزاق في مسنده ٣٩٣/١١، في باب الدجال، برقم: (٢٠٨٢٤).

عن الأبصار، قال: وقيل: إنه لا يموت إلا في آخر الزمان عند رفع القرآن، قال أبو حاتم السجستاني: سمعت مشيختنا – منهم أبو عبيدة وغيره – قالوا: إن أطول بني آدم عمرًا الخضر.

وروى ابن إسحاق في المبتدئ عن أصحابه أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة، وأن يدفنوه معهم في مكان عيّنه لهم، فلما كان الطوفان حملوه معهم، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى، فقالوا: إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك، وقال: إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه، وأنجز الله ما وعده فهو يحيى إلى ما شاء الله له أن يحيى[1]. وروى خيثمة بن سليمان من طريق جعفر الصادق عن أبيه، أن ذا القرنين كان له صديق من الملائكة، فطلب منه أن يدله على شيء يطول به عمره، فدله على عين الحياة وهي داخل الظلمة، فصار إليها والخضر على مقدمته، فظفر بها الخضر ولم يظفر بها ذو القرنين. وروي عن مكحول أن كعبًا الأحبار قال: أربعة من الأنبياء أحياء أمان لأهل الأرض: اثنان في الأرض: الخضر وإلياس، واثنين في السماء: إدريس وعيسى[2].

وأخرج أبو زرعة في دلائل النبوة عن أبي بن كعب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ليلة أسري به وجد رائحة طيبة فقال: "يا جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: هذه ريح قبل الماشطة وابنتها وزوجها"، وقال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل، وكان ممره براهب في صومعته، فتطلع عليه الراهب فعلّمه الإسلام، فلما بلغ الخضر زوّجه أبوه امرأة فعلّمها الإسلام، وأخذ عليها

---

(1) انظر: البداية والنهاية ١/٣٧٩.

(2) انظر: فتح الباري ٦/٤٣٤.

أن لا تعلّم أحدًا، وكان لا يقرب النساء، ثم طلّقها ثم زوجه أبوه بأخرى فعلّمها الإسلام، وأخذ عليها أن لا تعلّم أحدًا ثم طلّقها، فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى، فانطلق هاربًا حتى أتى جزيرة في البحر، فأقبل رجلان يحتطبان، فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر، قال: قد رأيت العزقيل ومن رآه معك؟ قال: فلان، فسئل فكتم، وكان من دينهم أنه من كذب قتل، فقتل وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة، قال: فبينما هي تمشط بنت فرعون، إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس فرعون، فأخبرت أباها وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا، فقال: إني قاتلكما، فقالا: إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد، فجعلهما في قبر واحد، فقال: وما وجدت ريحًا أطيب منهما، وقد دخلت الجنة، وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجًا من كلام أبيّ بن كعب أو عبد الله بن عباس رضي الله عنهم[1].

وأخرج النقاش أخبارًا كثيرة تدل على بقائه لا تقوم بشيء منها حجة، قاله ابن عطية، قال: ولو كان باقيًا لكان له في ابتداء الإسلام ظهور، ولم يثبت شيء من ذلك، وقال الثعلبي في تفسيره: هو معمر على جميع الأقوال، محجوب عن الأبصار، قال: وقد قيل: إنه لا يموت إلا في آخر الزمان حين يرفع القرآن، وقال ابن الصلاح المحدث: هو حي عند جمهور العلماء، والعامة معهم في ذلك، وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين، وتبعه النووي وزاد: إن ذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح، وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به أكثر من أن تحصر[2].

والذي جزم بأن الخضر غير موجود الآن من العلماء: البخاري وإبراهيم الحربي وأبو جعفر ابن المنادى وأبو يعلى بن الفراء وأبو طاهر العبادي وأبو بكر ابن

---

(1) انظر: فتح الباري ٦/٤٣٥.

(2) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/١٣٥. وانظر كذلك: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٦/٧٦.

العربي وطائفة، وعمدتهم في ذلك: الحديث المشهور عن ابن عمر وجابر رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في آخر حياته: "لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو عليها اليوم أحد"[١]. قال ابن عمر رضي الله عنهما: أراد بذلك انخرام قرنه، وأجاب من أثبت حياته: بأنه كان حينئذ على وجه البحر أو هو مخصوص من الحديث، كما خص منه إبليس بالاتفاق[٢].

ومن حجج من أنكر ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبلِكَ الخُلدَ﴾[٣]، وكذلك استدلوا بقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه"[٤]، ولم يأت في خبر صحيح أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا قاتل معه، وقد قال صلى الله عليه وسلم يوم بدر: "اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا"[٥]، فلو كان الخضر موجودًا لم يصح هذا النفي.

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما"[٦]، فلو كان الخضر موجودًا لما حسن هذا التمني، ولأحضره بين يديه وأراه العجائب، وكان أدعى لإيمان الكفرة، لا سيما أهل الكتاب.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبلِكَ الخُلدَ﴾[٧]، فالخضر إن كان بشرًا فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح،

---

(١) أخرجه البخاري في باب ذكر العشاء والعتمة.

(٢) انظر: الزهر النضر ص٨٧، فتح الباري ٤٣٤/٦، شرح القسطلاني على صحيح البخاري ٣٨٤/٥، تحفة الأحوذي ٤٣٣/٦.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٤.

(٤) انظر: فتح الباري ٤٣٤/٦.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٠/١، برقم: (٢٠٨).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَإِذ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبرَحُ حَتَّى أَبلُغَ مَجمَعَ البَحرَينِ أَو أَمضِيَ حُقُبًا﴾ .

(٧) سورة الأنبياء: ٣٤.

والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنَ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُم لَتُؤمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقرَرتُم وَأَخَذتُم عَلَى ذَلِكَ إِصرِي قَالُوا أَقرَرنَا قَالَ فَاشهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِين﴾[1]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه، ذكره البخاري عنه. فالخضر إن كان نبيًّا أو وليًّا فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حيًّا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله تعالى عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، لأنه إن كان وليًّا فالصديق أفضل منه، وإن كان نبيًّا فموسى أفضل منه. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني"[2]، وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكانوا كلهم أتباعًا له وتحت أوامره وفي عموم شرعه.

كما أنه صلى الله عليه وسلم لما اجتمع معهم ليلة الإسراء، رفع فوقهم كلهم، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة، أمره جبريل عليه السلام عن أمر الله تعالى أن يؤمهم، فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم، فدل على أنه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجل المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، فإذا علم هذا علم أنه لو كان الخضر حيًّا لكان من جملة أمة محمد صلى الله عليه

---

(1) سورة آل عمران: ٨١.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٤٩/٢٣، برقم: (١٥١٥٦).

وسلم وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك، هذا عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان بحكم بهذه الشريعة المطهرة، لا يخرج منها ولا يحيد عنها، وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل، والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالًا في مشهد من المشاهد.

وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق – فيما دعا به لربه عز وجل، واستنصره واستفتحه على من كفره–: "اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا"[١]. وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في قصيدة له في بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب:

وببئر بــدر إذ يــرد وجـوهـهـم جـبـريـل تـحـت لـوائـنـا ومـحـمـد

فلو كان الخضر حيًّا لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته، قال القاضي أبو يعلى ابن الفراء: سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات؟ فقال: نعم، قال: وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري قال: وكان يحتج بأنه لو كان حيًّا لجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، نقله ابن الجوزي في العجالة. فإن قيل: فهل يقال: إنه كان حاضرًا في هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه؟ فالجواب: أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات، ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر بمعجزته؟!، ثم لو كان باقيًا بعده لكان تبليغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم،

---

(١) سبق تخريجه من قبل.

وتسديده العلماء والحكام وتقريره الأدلة والأحكام، أفضل ما يقال عنه من كنونه في الأمصار، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم.

وثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ليلة العشاء، ثم قال: "أرأيتم ليلتكم هذه، فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد"[١]، وفي رواية: "عين تطرف"، قال ابن عمر رضي الله عنهما: فوهل الناس في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه، وإنما أراد انخرام قرنه. وقال صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بشهر: "يسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة"[٢]، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة". قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر، قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع فلا إشكال، وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعد مائة سنة فيكون الآن مفقودًا لا موجودًا، لأنه داخل في هذا العموم، والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله[٣].

وقد جاء في اجتماعه مع النبي صلى الله عليه وسلم حديث أخرجه ابن عدي[٤] من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده، أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع وهو في المسجد كلامًا، فقال: "يا أنس، اذهب إلى هذا القائل فقل له: يستغفر لي، فذهب إليه فقال: قل له: إن الله فضلك على الأنبياء بما

([١]) سبق تخريجه من قبل.

([٢]) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: لا يأتي مائة سنة.

([٣]) انظر: المنتظم لابن الجوزي ٣٦٢/١. وانظر رد ابن حجر الهيتمي عليه في هذه المسألة: الفتاوى الحديثية ص ٢١٨.

([٤]) انظر: الكامل في ضعفاء الرجال ٦٢/٦.

فضل به رمضان على الشهور، قال: فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر"، وروى الدارقطني في الإفراد من طريق عطاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: "يجتمع الخضر وإلياس كل عام في الموسم، فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه، ويفترقان عن هؤلاء الكلمات: بسم الله، ما شاء الله"، ورواه ابن عساكر بزيادة: "ويشربان من ماء زمزم شربة تكفيهما إلى قابل"، ورواه أحمد في الزهد بإسناد حسن، وزاد: "أنهما يصومان رمضان ببيت المقدس"، ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه دخل الطواف فسمع رجلًا يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع الحديث، فإذا هو الخضر، أخرجه ابن عساكر. وعن أنس قال: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بصوت يجيء من شعب، قال: "يا أنس، انطلق فانظر ما هذا الصوت، قال: فانطلقت فإذا برجل يصلي إلى شجرة فيقول: اللهم اجعلني من أُمة محمد المرحومة، المغفور لها، المستجاب لها، المتاب عليها، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعلمته ذلك فقال: انطلق فقل له: إن رسول الله يقرئك السلام ويقول: من أنت؟ فأتيته فأعلمته ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أقرئ منّي رسول الله السلام وقل له: أخوك الخضر يقول: أسألك أن يجعلني من أُمتك المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتاب عليها[1].

وجاء في اجتماعه ببعض الصحابة فمن بعدهم أخبار كثيرة، منها: ما أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم دخل رجل فتخطاهم .. فذكر الحديث في التعزية، فقال أبو بكر وعلي رضي الله عنهما: "هذا الخضر"، وروى ابن وهب من طريق ابن المنكدر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلى على جنازة، فسمع قائلًا يقول: لا تسبقنا .. فذكر القصة، وفيها: أنه دعا للميت، فقال عمر: خذوا الرجل، فتوارى عنهم، فإذا أثر قدمه ذراع، فقال عمر: هذا والله الخضر، وروى أحمد في الزهد عن عون بن عبد الله قال:

(١) أورد الثعلبي هذا الخبر في تفسيره الكشف والبيان ١٢٨/٣.

بينا رجل بمصر في فتنة ابن الزبير مهمومًا، إذ لقيه رجل فسأله فأخبره باهتمامه بما فيه الناس من الفتن، فقال: قل اللهم سلمني وسلم مني، قال: فقالها فسلم، قال مسعر: يرون أنه الخضر.

وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه وأبو عروبة من طريق رباح بن عبيدة قال: رأيت رجلًا يماشي عمر بن عبد العزيز معتمدًا على يديه، فلما انصرف، قلت له: من الرجل؟ قال: رأيته؟ قلت: نعم، قال: أحسبك رجلًا صالحًا، ذاك أخي الخضر، بشرني أني سأولى وأعدل، وروى ابن عساكر من طريق كرز بن وبرة قال: أتاني أخ لي من أهل الشام، فقال: اقبل مني هذه الهدية، إن إبراهيم التيمي حدثني قال: كنت جالسًا بفناء الكعبة أذكر الله، فجاءني رجل فسلّم عليّ، فلم أر أحسن وجهًا منه، ولا أطيب ريحًا، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا أخوك الخضر، قال: فعلّمه شيئًا إذا فعله رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وروى ابن عساكر في ترجمة أبي زرعة الرازي بسند صحيح، أنه رأى وهو شاب رجلًا نهاه عن غشيان أبواب الأمراء، ثم رآه بعد أن صار شيخًا كبيرًا على حالته الأولى، فنهاه عن ذلك أيضًا، قال: فالتفت لأكلمه فلم أره، فوقع في نفسي أنه الخضر. وروى عمر الجمحي في فرائده والفاكهي في كتاب مكة، عن جعفر بن محمد أنه رأى شيخًا كبيرًا يحدّث أباه، ثم ذهب فقال له أبوه رده عليّ، قال: فتطلّبته فلم أقدر عليه، فقال لي أبي: ذاك الخضر، وروى البيهقي من طريق الحجاج بن قرافصة، أن رجلين كانا يتبايعان عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقام عليهم رجل فنهاهما عن الحلف بالله، ووعظهم بموعظة، فقال ابن عمر لأحدهما: اكتبها منه فاستعاده حتى حفظها، ثم تطلبه فلم يره، قال: وكانوا يرون أنه الخضر.

وقد اختلف المفسرون والمؤرخون في حاله على ثلاثة أقوال مشهورة[1]:

([1]) انظر: تفسير الماوردي ٣/٣٢٥، شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/١٣٥، الزهر النضر في حال الخضر ص ٢٤.

القول الأول: إنه ملك من الملائكة، يتصور في صور الآدميين مغيرًا ذاتًا، قال النووي: هذا غريب باطل، وقال ابن كثير: هذا غريب جدًّا.

القول الثاني: أنه ولي، ذهب إليه جماعة من السادة الصوفية وغيرهم، وقال به أبو علي بن أبي موسى من الحنابلة، وأبو بكر الأنباري، وأبو القاسم القشيري في رسالته في باب الأولياء.

القول الثالث: أنه نبي، قاله جمهور العلماء المحققين، قال الثعلبي: هو نبي في جميع الأقوال، وقال القرطبي المفسر: الخضر نبي عند الجمهور، وذكر الألوسي نبوته عند الجمهور.

واستدل الجمهور في إثبات نبوته على أدلة كثيرة، منها[١]: سياق قصة الخضر مع موسى عليهما السلام الواردة في سورة الكهف من القرآن الكريم، ففيها أربعة وجوه تدل على نبوته:

الأول: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبدًا مِن عِبَادِنَا آتَينَاهُ رَحمَةً مِن عِندِنَا وَعَلَّمنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلمًا﴾[٢]، وقد ذكر الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿رَحمَةً مِن عِندِنَا﴾ ثلاثة أقوال، أشار إلى تضعيفها كلها، ثم ذكر أن جمهور العلماء على أنها الوحي والنبوة، وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن الكريم، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة، بمجموعها يكاد يحصل اليقين.

الثاني: قول موسى عليه السلام له كما حكى الله تعالى عنه: ﴿هَل أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمتَ رُشدًا. قَالَ إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبرًا. وَكَيفَ تَصبِرُ عَلَى مَا لَم تُحِط بِهِ خُبرًا. قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعصِي لَكَ أَمرًا. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعتَنِي

---

(١) انظر: عيون المناظرات ص١٠٦، تفسير القرطبي ٢٨/١١، إكمال المعلم ٣٦٥/٧، البداية والنهاية ٣٤٨/١.

(٢) سورة الكهف: ٦٥.

فَلَا تَسأَلنِي عَن شَيءٍ حَتَّى أُحدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكرًا﴾ [١]، فلو كان وليًّا وليس بنبي، لم يخاطبه موسى عليه السلام بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله تعالى به دونه، فلو كان غير نبي لم يكن معصومًا، ولم تكن لموسى – وهو نبي عظيم ورسول كريم – واجب العصمة، كبير رغبة، ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة.

الثالث: إن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذلك إلا للوحي إليه من الله تعالى، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقي في خلده، لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام، الذي لم يبلغ الحلم علما منه بأنه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه عن الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته، دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله تعالى بعصمته.

الرابع: لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره، قال الله تعالى بعد ذلك كله: ﴿رَحمَةً مِن رَّبِكَ وَمَا فَعَلتُهُ عَن أَمرِي﴾[٢]، يعني: ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به، وأوحي إليّ فيه، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿عَالِمُ الغَيبِ فَلَا يُظهِرُ عَلَى غَيبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَن ارتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [٣]، وقد دلت قصة الخضر مع موسى أنه كان مظهرًا على الغيب، وليس ذلك لأحد من الأولياء، فدل على أنه نبي أوحي إليه، وبأنه أعلم من موسى، ويبعد أن يكون ولي أعلم من نبين وأجاب بعضهم: بأنه يجوز أن يكون قد أوحى الله تعالى إلى نبي في ذلك العصر أن يأمر الخضر بذلك.

([١]) سورة الكهف: ٦٦-٧٠.

([٢]) سورة الكهف: ٨٢.

([٣]) سورة الجن:٢٦-٢٧.

وأما الأدلة على نبوته من السنة، فمنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "وددتُ أن موسى صبر، حتى يقص علينا من أمرهما"[١]. ففي تمني النبي هذا للاطلاع على ما يقع بينهما، دليل على أن الخضر كان موحى إليه، ولو لم يكن كذلك لما جاز هذا التمني بأن ينتظر النبي أمرًا غير موحى من إنسان غير موحى إليه.

ومنها: تأويل الخضر في قتل الغلام، كما جاء في الحديث: "وأما الغلام فإنه كان طبع يوم طبع كافرًا، وكان قد ألقى عليه محبة من أبويه، ولو أطاعاه لأرهقهما"، وزاد في رواية: "ووقع أبوه على أمه، فحملت فولدت منه خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا"[٢]، فإخباره عليه السلام أن الغلام طبع كافرًا، وأن أباه وقع على أمه فحملت وولدت خيرًا منه، لهو من الأمور الغيبية المحضة التي لا مجال للاطلاع عليها إلا من طريق النبوة والوحي، فذلك من أقوى الأدلة على أنه كان نبيًّا إن لم يكن رسولًا.

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "لما لقى موسى الخضر عليهما السلام، جاء طير فألقى منقاره في الماء، فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطير؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله إلا كما أخذ منقاري من الماء"[٣]، فهذا صريح في أن الخضر قد علم منطق الطير، وهو من الغيب الذي لا يعلمه البشر، فهو في هذا على نحو النبي سليمان عليه السلام الذي حكى الله تعالى عنه في القرآن حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمنَا مَنطِقَ الطَّيرِ﴾[٤].

ومنها: حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، الذي ورد فيه: "بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر"[٥]. إن دل تخصيص الله تعالى بتلك الأمور

---

(١) سبق تخريجه من قبل.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/١١٨، برقم: (٢١١٥٦).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٤٠٠، برقم: (٣٣٩٤).

(٤) سورة النمل: ١٦.

(٥) أخرجه البخاري في باب: ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام.

الغيبية بالخضر دون موسى عليهما السلام مع أنه من أولي العزم من الرسل فإنما يدل على نبوة الخضر، ويؤيده سياق هذا الحديث، حيث قال الله تعالى فيه: "بلى، عبدنا خضر".

وقيل في هذا الشأن: إن موسى أعلم منه بوظائف النبوة وأمور الشريعة وسياسة الأمة، والخضر أعلم منه بأمور أُخر مما لا يعلمها أحد إلا بإعلام الله تعالى من علوم غيبية بالقصص المذكورة في خبرها، وكان موسى أعلم على الجملة، والعموم بما تقدم مما لا يمكن جهل الأنبياء لشيء منه، والخضر أعلم على الخصوص بما أعلم من أمور الغيب وحوادث القدر، وقصص الناس مما لا يعلم منه الأنبياء إلا ما أعلموا به، مما استأثر الله به من غيبه، وما قدره وسبق في علمه مما كان ويكون في خلقه؛ ولذلك قال الخضر كما في الحديث: "أنت على علم من علم الله علمكه لا تعلمه"[١]، ألا تراه كيف لم يعرف أنه موسى نبي بني إسرائيل حتى عرفه بنفسه، أفلم يعرفه الله تعالى به؟، وهذا مثل قول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: "إني لا أعلم إلا ما علمني ربي"[٢]، وقد قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[٣]. وقيل في قوله: "وعتب الله عليه": أي: إذ لم يرد العلم إليه كما ردته الملائكة لقولهم: لا علم لنا إلا ما علمتنا، ولئلا يقتدي به غيره في تزكية نفسه، والعجب بحاله فيهلك، وقيل: كان موسى أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله تعالى، والخضر أعلم فيما دفع إليه موسى، وقيل: إنما ألجئ موسى إلى الخضر للتأديب لا للتعليم.

وبعد، فلنا أن نقرر بعد هذا العرض أن الصحيح من حال الخضر أنه كان نبيًّا من عند الله جل وعلا، وهو ما عليه جمهور أهل العلم، وعندهم أدلة على هذا الإثبات من الكتاب والسنة كما بينا آنفًا، ويكفي في ذلك قوله تعالى عن الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: أحاديث الأنبياء.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه ١٨٤/٢.

(٣) سورة الكهف: ٦٥.

عَن أَمرِي﴾[1]، فدلت الآية على نبوته وأنه يوحى إليه بالتكليف والأحكام كما أوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، غير أنه ليس برسول، فلو كان وليًّا وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عليه، ولو أنه يمضي حقبًا من الزمان، قيل: ثمانين سنة، ثم لما اجتمع به تواضع له وعظّمه واتبعه في صورة مستفيد منه، دل على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبي بني إسرائيل الكريم.

---

(1) سورة الكهف: ٨٢.

المبحث الخامس

الاختلاف في نبوة عزير

هو عزير بن جروة، ويقال: ابن سوريق بن عديا بن أيوب ابن درزنا بن عري بن تقي بن اسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران، ويقال: عزير بن سروخا[١].

وعن عبد الله بن سلام: أن عزيزًا هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، وقيل: إن عزيزًا كان عبدًا صالحًا حكيمًا، خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر، ودخل الخربة وهو على حماره، فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب، فنزل في ظل تلك الخربة، وأخرج قصعة معه، فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة، ثم أخرج خبزًا يابسًا معه، فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلها ورأى عظامًا بالية، فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها، فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجبًا، فبعث الله تعالى ملك الموت فقبض روحه، فأماته الله مائة عام.

فلما أتت عليه مائة عام، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث، قال: فبعث الله إلى عزير ملكًا فخلق قلبه ليعقل قلبه وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي الله الموتى؟، ثم ركب خلقه وهو ينظر، ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد، ثم نفخ فيه الروح، كل ذلك وهو يرى ويعقل، فاستوى جالسًا فقال له الملك: كم لبثت؟ قال: لبثتُ يومًا أو بعض يوم، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة، وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب، فقال: أو بعض يوم، ولم يتم لي يوم، فقال له الملك: بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك، ويعني بالطعام: الخبز اليابس، والشراب: العصير الذي كان اعتصره في القصعة، فإذا هما على حالهما

(١) انظر في اسمه وأخباره واختلاف الناس فيه: تفسير الطبري ٢٠٢/١٤، قصص الأنبياء ٣٣٩/٢، البداية والنهاية ٥١/٢.

لم يتغير العصير والخبز يابس، فذلك قوله: ﴿لم يَتَسَنَّه﴾، يعني: لم يتغير، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شيء من حالهما، فكأنه أنكر في قلبه، فقال له الملك: أنكرت ما قلت لك! انظر إلى حمارك، فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة، فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية، حتى ركبه الملك وعزير ينظر إليه، ثم ألبسها العروق والعصب، ثم كساها اللحم، ثم أنبت عليها الجلد والشعر، ثم نفخ فيه الملك، فقام الحمار رافعًا رأسه وأذنيه إلى السماء، ناهقًا يظن القيامة قد قامت، فذلك قوله: ﴿وانظُر إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُر إِلَى العِظَامِ كَيفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكسُوهَا لَحمًا﴾، يعني: وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضًا في أوصالها حتى إذا صارت عظامًا مصورًا حمارًا بلا لحم، ثم انظر كيف نكسوها لحمًا؟، فلما تبيّن له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير من إحياء الموتى وغيره.

قال: فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر منزله، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم، فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته، فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة. فقال لها عزير: يا هذه، أهذا منزل عزير؟ قالت: نعم، هذا منزل عزير، فبكت وقالت: ما رأيت أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرًا وقد نسيه الناس، قال: فإني أنا عزير، كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني، قالت: سبحان الله، فإن عزيرًا قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر، قال: فإني أنا عزير، قالت: فإن عزيرًا رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله أن يرد عليّ بصري حتى أراك: فإن كنت عزيرًا عرفتك، قال فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحت وأخذ بيدها، وقال: قومي بإذن الله، فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة، كأنما نشطت من عقال، فنظرت فقالت: أشهد أنك عزير.

وانطلقت إلى محلة بني إسرائيل، وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشر سنة، وبني بنيه شيوخ في المجلس فنادتهم فقالت:

هذا عزير قد جاءكم، فكذبوها، فقالت: أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فردّ عليّ بصري، وأطلق رجلي، وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه، قال: فنهض الناس، فأقبلوا إليه فنظروا إليه، فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير، فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير، وقد حرق بخت نصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا، وكان أبوه سروخا وقد دفن التوراة أيام بخت نصر في موضع لا يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة، وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب، قال: وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله، فجدد لهم التوراة، ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه، فتذكر التوراة فجددها لبني إسرائيل، فمن ثم قالت اليهود: عزير ابن الله للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل، وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل، والقرية التي مات فيها يقال لها: سايراباذ(1).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكان كما قال الله تعالى: ﴿وَلِنَجعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾(2)، يعني لبني إسرائيل، وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب، لأنه مات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله تعالى شابًا كهيئة يوم مات، قال ابن عباس: بعث بعد بخت نصر، وكذلك قاله الحسن. والمشهور أن عزيرًا نبي من أنبياء بني إسرائيل، وذكره المسعودي بين الأنبياء، وقال: وقد تنازع الناس في نبوته. وقال ابن قتيبة في المعارف: إن الله محى اسمه من الأنبياء؛ لأنه أكثر المناجاة في القدر(3).

والصحيح عند البعض(4) أن عزيزًا غير نبي، وأما حديث: "لا أدري عزير كان نبيًّا أم لا"، فقد ذكروا أنه ضعيف؛ لأن في سنده محمد بن كريب القرشي أخو رشدين

---

(1) انظر: تفسير الخازن ١/٢٧٩.

(2) سورة البقرة: ٢٥٩.

(3) انظر: المعارف لابن قتيبة ص ٥٠.

(4) انظر: شرح الخرشي على مختصر خليل ٣/٥٤.

وهو ضعيف، وقد جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا أيضًا، ولكنه ضعيف؛ لأن في سنده محمد بن إسحاق السجزي وهو ضعيف، وما جاء من أحاديث وآثار أن عزيرًا كان نبيًّا ثم محي اسمه من النبوة بسبب مسائلته لله تعالى في القدر، فلم يثبت منها شيء. وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيرٌ ابنُ اللهِ﴾[١]، لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب، وإن عزيرًا قد جاءنا بها من غير كتاب فرماه طوائف منهم، وقالوا: عزير ابن الله. ولهذا يقول كثير من العلماء: إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير. وهذا بعيد جدًّا إذا كان العزيز غير بني، كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصري، وفيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان، عن عطاء، وعن عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه ومقاتل عن عطاء بن أبي رباح قال: كان في الفترة تسعة أشياء: بخت نصر وجنة صنعاء وجنة سبأ وأصحاب الأخدود وأمر حاصورا وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة أنطاكية وأمر تبع.

وذكر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن عزيزًا كان ممن سباه بخت نصر وهو غلام حدث، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله تعالى الحكمة، قال: ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه، قال: وكان يذكر مع الأنبياء حتى محى الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر، قال ابن كثير: وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر.

وعن الحسن قال: كان أمر عزير وبخت نصر في الفترة، وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنا أولى الناس بابن مريم، الأنبياء أولاد علات، وليس بيني وبينه نبي"[٢]. وقال وهب بن منبه: كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام. وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيرًا كان في زمن

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام.

موسى بن عمران، وأنه استأذن عليه فلم يأذن له، يعني لما كان من سؤاله عن القدر، وأنه انصرف وهو يقول: مائة موتة أهون من ذل ساعة، وفي معنى قول عزير: مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء:

قد يصبر الحر على السيف ويأنف الصبر على الحيف

ويؤثر الموت على حالة يعجز فيها عن قرى الضيف

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البكالي وسفيان الثوري وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحي اسمه من ذكر الأنبياء، فهو منكر، وفي صحته نظر، وكأنه مأخوذ عن الإسرائيليات، وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال: قال عزير فيما يناجي ربه: يا رب، تخلق خلقًا فتضل من تشاء، وتهدي من تشاء، فقيل له: أعرض عن هذا فعاد، فقيل له: لتعرض عن هذا أو لأمحونّ اسمك من الأنبياء، إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون، وهذا لا يقتضي وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محيا اسمه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة"[1]، فروى إسحاق بن بشر، عن ابن جريج، عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه أنه: "عزير". وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري أنه: "عزير".

ومن هنا تبيّن لنا من النصوص السابقة أن القول بنبوة عزير هو الأقرب والراجح من آراء علماء الأمة، قال ابن كثير: والمشهور أن عزيرًا نبي من أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى عليهم السلام، وأنه لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة فألهمه الله حفظها فسردها على بني إسرائيل،

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب السلام، باب: النهي عن قتل النمل.

ولهذا قالوا عنه: "ابن الله"، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، كما قال وهب بن منبه: أمر الله ملكًا فنزل بمعرفة من نور، فقذفها في عزير، فنسخ التوراة حرفًا بحرف حتى فرغ منها[1].

(1) انظر: البداية والنهاية ٢/٤٦.

المبحث السادس

الاختلاف في نبوة الأسباط

اختلفت الآراء في تعريف الأسباط[١]، وسنحاول في هذا المبحث أن نستعرض بعضًا منها: الأسباط: هم أولاد يعقوب عليه السلام، وهم اثنا عشر رجلًا، ولد كل منهم أمة من الناس فسمّوا أسباطًا، وروي عن السدي أنهم: يوسف وبنيامين ورَؤُبيل ويهوذا وشمعون ولاوي ودان وقهات، ولم يذكر سوى هؤلاء الثمانية، ولكنه روي عن محمد بن إسحاق أن يعقوب بن إسحاق نكح ابنة خاله ليًّا، ابنة لبان بن توبيل بن إلياس، فولدت له رَؤُبيل بن يعقوب، وكان أكبر ولده، وشمعون بن يعقوب، ولاوي بن يعقوب، ويهوذا بن يعقوب، وزَبالون بن يعقوب، ويشجر بن يعقوب، ودينة بنت يعقوب، ثم توفيت ليًّا بنت لبان، فخلف يعقوب على أختها راحيل بنت لبان بن توبيل بن إلياس، فولدت له يوسف بن يعقوب وبنيامين، وهو بالعربية أسد، ولد له من سريّتين له اسم – إحداهما: زِلفة، واسم الأخرى بِلهة – أربعة نفر: دان بن يعقوب، ونَفتلي بن يعقوب، وجاد بن يعقوب، وأشرب بن يعقوب، فكان بنو يعقوب اثنا عشر رجلًا، نشر الله منهم اثني عشر سبطًا لا يحصى عددهم، ولا يعلم أنسابهم إلا الله. قال تعالى: ﴿وَقَطَّعنَاهُم اثنَتَي عَشرَةَ أَسبَاطًا أُمَمًا﴾[٢].

وقيل: إن الأسباط من بني إسرائيل كالقبيلة في العرب. وقيل: السبط الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي النبي صلى الله عليه وسلم، فهم حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر[٣]. وقيل: الأسباط ولد يعقوب، وهما اثنا عشر ولدًا، ولكل واحد منهم أمة من الناس، وسموا الأسباط من السبط، وهو التتابع[٤]. وقال الألوسي: إن

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٤٤٢/١.

(٢) سورة الأعراف: ١٦٠.

(٣) انظر: تفسير غرائب القرآن ٤٣٨/١.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ١٤١/٢.

الأسباط جمع سِبط، وهم أولاد إسرائيل، وقيل: هم أولاد إسحاق، قال: واختلف الناس في الأسباط أولاد يعقوب، هل كانوا كلهم أنبياء أم لا؟ قال: والذي صح عندي الثاني، وهو المروي عن جعفر الصادق، وإليه ذهب الإمام السيوطي وألّف فيه، لأن ما وقع منهم مع يوسف ينافي النبوة قطعًا، وكونه قبل البلوغ غير مسلّم، لأن فيه أفعالًا لا يقدر عليها إلا البالغون، وعلى تقدير التسليم لا يجدي نفعًا على ما هو القول الصحيح في شأن الأنبياء، وكم كبيرة تضمّن ذلك الفعل، وليس في القرآن ما يدل على نبوتهم[1].

ونحن نرى أن الأسباط هم أولاد يعقوب عليه السلام الاثنى عشر، وذلك للأسباب الآتية[2]:

أولًا: ذكر المولى عز وجل أن الأسباط لم يكونوا في عهد موسى عليه السلام ولا في عهد عيسى عليه السلام، وهذا يدل على أنهم كانوا في الفترة ما بين يعقوب وموسى عليهما السلام، قال تعالى: ﴿أَم تَقُولُونَ إِنَّ إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطَ كَانُوا هُودًا أَو نَصَارَى قُل أَأَنتُم أَعلَمُ أَمِ اللهُ﴾[3]. فهذا تقرير وتوبيخ في ادعائهم أنهم كانوا هودًا أو نصارى، فردّ الله تعالى بأنه أعلم بهم منكم، ولم يكونوا هودًا أو نصارى.

ثانيًا: عدّ الباري سبحانه في بعض الآيات القرآنية الرسل والنبيين البارزين الذين يجب علينا أن نؤمن بهم ولم يذكر فيهم يوسف عليه السلام، بل ذكر تعالى بدله "الأسباط"، وفي هذا دليل على أن يوسف عليه السلام منهم، وإلا لذكر اسمه، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَينَا وَمَا أُنزِلَ إِلى إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِهِم لَا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِّنهُم

([1]) انظر: روح المعاني ٣٢١/١.

([2]) انظر: الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل للدكتور الحاج محمد وصفي ص ١٦٥.

([3]) سورة البقرة: ١٤٠.

وَنَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾[١]، وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿قُل آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَينَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطِ﴾[٢].

ثالثًا: وصى يعقوب عليه السلام حين حضر الموت أولاده جميعًا بما فيهم يوسف عليه السلام ألا يعبدوا إلا الله وحده لا شريك له، وهو بهذا قد سوّى بينهم جميعًا في التوصية، قال تعالى: ﴿أَم كُنتُم شُهَدَاءَ إِذ حَضَرَ يَعقُوبَ الموتُ إِذ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعبُدُونَ مِن بَعدِي قَالُوا نَعبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحنُ لَهُ مِسلِمُونَ﴾[٣].

وقد جمع الله تعالى في عدة مواضع من القرآن بين الأسباط وبين الرسل والنبيين، وسنحاول هنا أن نلقي ضوءًا على الأسباط، ونحاول أن نعرف الحق في أنهم كانوا أنبياء أم لا؟. جاء ذكر الأسباط في القرآن في خمسة مواضع، وهي:

١- قوله تعالى: ﴿أَم تَقُولُونَ إِنَّ إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطَ كَانُوا هُودًا أَو نَصَارَى﴾[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِن قَومِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعدِلُونَ. وَقَطَّعنَاهُم اثنَتَي عَشرَةَ أَسبَاطًا أُمَمًا﴾[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوحَينَا إِلَيكَ كَمَا أَوحَينَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعدِهِ وَأَوحَينَا إِلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيمَانَ﴾[٦].

---

(١) سورة البقرة: ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران: ٨٤.

(٣) سورة البقرة: ١٣٣.

(٤) سورة البقرة: ١٤٠.

(٥) سورة الأعراف: ١٥٩-١٦٠.

(٦) سورة النساء: ١٦٣.

٤- قوله تعالى: ﴿قُل آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَينَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِم لَا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِّنهُم وَنَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾[١].

٥- قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَينَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطِ وَمَا أُوتِي النَّبِيِّونَ مِن رَبِّهِم لَا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنهُم وَنَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾[٢].

وقد اختلف الناس في نبوة الأسباط: فمن قائل: إنهم أنبياء، ومن قائل: إنهم ليسوا بأنبياء، وقد حقق القول في هذا بعض العلماء[٣] حيث قالوا: الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار أن إخوة يوسف ليسوا أنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم، بل ولا عن أصحابه رضوان الله عليهم خبر بأن الله تعالى نبّأهم، وإنما احتج به من قال: إنهم نبئوا بقوله في آيتي البقرة والنساء: ﴿وَالأَسبَاطِ﴾، وفسّر الأسباط بأنهم أولاد يعقوب، والصواب: أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته، كما يقال فيهم أيضًا: بنو إسرائيل، وكان في ذريته الأنبياء، فالأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسرائيل، والأسباط كذلك حفدة يعقوب عليه السلام ذراري أبنائه الاثني عشر. قال تعالى: ﴿وَمِن قَومِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعدِلُونَ. وَقَطَّعنَاهُم اثنَتَي عَشرَةَ أَسبَاطًا أُمَمًا﴾[٤]، فهذا صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، كل سبط أمة لا أنهم بنوه الاثنا عشر، بل لا معنى لتسميتهم قبل أن تنتشر عنهم الأولاد أسباطًا، فالحال أن السبط هم الجماعة من الناس؛ ومن قال الأسباط أولاد يعقوب عليه السلام لم يرد أولاده لصلبه بل أراد ذريته، كما يقال: بنو إسرائيل وبنو

---

(١) سورة آل عمران: ٨٤.

(٢) سورة البقرة: ١٣٦.

(٣) انظر: الفصل لابن حزم ٧/٤، تفسير ابن كثير ٣٧٢/٤، جامع المسائل" المجموعة الثانية لابن تيمية الحراني ص (٢٩٧-٢٩٩).

(٤) سورة الأعراف: ١٥٩-١٦٠.

آدم، فتخصيص الآية بنيه لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى، ومن ادعاه فقد أخطأ خطأً بينًا، والصواب عندهم: أن كونهم أسباطًا إنما سموا به من عهد موسى عليه السلام للآية المتقدمة، ومن حينئذ كانت فيهم النبوة، فإنه لا يعرف أنه كان فيهم نبي قبل موسى إلا يوسف عليهما السلام، ومما يؤيد هذا أن الله تعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيمَانَ﴾[١]، فذكر المولى عز وجل يوسف عليه السلام ومن معه ولم يذكر الأسباط، فلو كان إخوة يوسف نبئوا كما نبئ يوسف لذكروا معه.

وكذلك ذكروا أن أفعال إخوة يوسف عليه السلام تشهد أنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم، فكيف يكونوا أنبياء؟! ولكن الرسولَيْن أباهم وأخاهم قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم، وبرهان ذلك قول الله تعالى – حاكيًا عن الرسول يوسف عليه السلام أخيهم أنه قال لهم–: ﴿أَنتُم شَرٌّ مَكَانًا﴾[٢]، ولا يجوز ألبتة أن يقوله نبي من الأنبياء، نعم ولا لقوم صالحين؛ إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس؛ لأن الصالحين ليسوا شرًّا مكانًا، وقد عق ابن نوح عليه السلام أباه أكثر مما عق به أخوة يوسف عليه السلام أباهم، إلا أن أخوة يوسف لم يكفروا، ولا يحل لمسلم أن يدخل في الأنبياء من لم يأت نص ولا إجماع، ولا فرق بين التصديق بنبوة من ليس نبيًّا وبين التكذيب بنبوة من صحت نبوته منهم، فإن ذكروا في ذلك ما روى عن بعض الصحابة رضي الله عنهم –وهو زيد بن أرقم–: إنما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأولاد الأنبياء أنبياء، فهذه غفلة شديدة وزلة عالم، من وجوه:

أولها: أنه دعوى لا دليل على صحتها. ثانيها: أنه لو كان ما ذكر لأمكن أن ينبأ إبراهيم في المهد كما نبيء عيسى عليه السلام، وكما أوتي يحيى عليه السلام

---

(١) سورة الأنعام: ٨٤.

(٢) سورة يوسف: ٧٧.

الحكم صبيًّا، فعلى هذا القول لعل إبراهيم كان نبيًّا، وقد عاش عامين غير شهرين، وحاشا لله من هذا. ثالثها: أن ولد نوح كان كافرًا بنص القرآن عمل عملًا غير صالح، فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًّا، وحاشا لله تعالى من هذا. رابعها: لو كان كذلك لوجب ولابد أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم، بل جميع أهل الأرض أنبياء، لأنه يلزم أن يكون الكل من ولد آدم لصلبه أنبياء، لأن أباهم نبي وأولاده أنبياء أيضًا، لأن آباءهم أنبياء، وهم أولاد أنبياء ... وهكذا أبدًا حتى يبلغ الأمر إلينا، وفي هذا من الكفر لمن قامت عليه الحجة، وثبت عليه ما لا خفاء به.

لذلك كله نقول: إنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَينَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطِ﴾[1]. وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالًا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم.

---

(1) سورة البقرة: ١٣٦.

المبحث السابع

الاختلاف في نبوة خالد بن سنان العبسي

ذكر بعض العلماء[١] أنه كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمائة سنة أو أقل أو أكثر، وعن الكلبي أنه كان بين موسى وعيسى عليهما السلام ألف وسبعمائة سنة، وألفا نبي، وبين عيسى ومحمد عليهما السلام أربعة من الأنبياء: ثلاثة من بني إسرائيل، وواحد من العرب وهو: خالد بن سنان العبسي. وأورد ابن أبي خيثمة في كتاب البدء له خالد بن سنان العبسي وذكر نبوته، وذكر أنه وكّل به من الملائكة مالك خازن النار، وكان من أعلام نبوته أن نارًا يقال لها: نار الحدثان، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردّها، فردّها خالد ابن سنان فلم تخرج بعد[٢].

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا أولى الناس بعيسى؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي"[٣]، فقد استدل به بعضهم على أنه لم يبعث بعد عيسى عليه السلام أحد إلا نبينا صلى الله عليه وسلم، وفيه نظر؛ لأنه ورد أن الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة يس كانوا من أتباع عيسى عليه السلام، وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيّين وكانا بعد عيسى عليه السلام. والجواب: أن هذا الحديث يضعف ما ورد من ذلك، فإنه صحيح بلا تردد، وفي غيره مقال، أو المراد: أنه لم يبعث بعد عيسى عليه السلام نبي بشريعة مستقلة، وإنما بعث بعده من بعث بتقرير شريعة عيسى عليه السلام، وقصة خالد بن سنان أخرجها الحاكم في المستدرك

---

(١) انظر: تفسير الرازي ١١/٣٣٠.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١١/٤٦.

(٣) سبق تخريجه من قبل.

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولها طرق جمعها الحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمته في كتابه في الصحابة[١].

وقد وقع في بعض بلاد الحجاز في الجاهلية نحو هذه النار التي ظهرت بنواحي المدينة في زمن خالد بن سنان العبسي، فقام في أمرها حتى أخمدها ومات بعد ذلك في قصة له، ذكرها أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب الجماجم، وأوردها الحاكم في المستدرك من طريق يعلى بن مهدي عن أبي عوانة عن أبي يونس عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا من بني عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه: إني أطفئ عنكم نار الحدثان، فذكر القصة، وفيها: فانطلق وهي تخرج من شق جبل من حرة يقال لها: حرة أشجع، فذكر القصة في دخوله الشق، والنار كأنها جبل سقر، فضربها بعصاه حتى أدخلها وخرج[٢].

وذكر جماعة مشهورين في الجاهلية خبر خالد بن سنان العبسي الذي كان في زمن الفترة، وقد زعم بعضهم أنه كان نبيًّا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبسط لها ثوبه، وقال: "بنت نبي ضيّعه قومه"، ورواه البزار وقال: ذكر خالد بن سنان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ذاك نبي ضيّعه قومه"، ثم قال: ولا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه. وكان قيس بن الربيع ثقة في نفسه إلا أنه كان رديء الحفظ، وكان له ابن يدخل في أحاديثه ما ليس منها، قال البزار: وقد رواه الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلًا.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا المعلى بن مهدي قال: حدثنا أبو عوانة عن أبي يونس عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا من عبس يقال له: خالد بن سنان قال لقومه: إني أطفئ عنكم نار الحرتين، فقال له رجل من قومه – قيل: أنه

---

(١) انظر: فتح الباري ٦/٤٨٩.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/٧٩.

عمارة بن زياد-: والله يا خالد ما قلت لنا قط إلا حقًّا، فما شأنك وشأن نار الحرتين، تزعم أنك تطفئها، فخرج خالد ومعه أناس من قومه فيهم عمارة بن زياد، فأتوها فإذا هي تخرج من شق جبل، فخط لهم خالد خطة فأجلسهم فيها، فقال: إن أبطأت عليكم فلا تدعوني باسمي، فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضًا، فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعصاه وهو يقول: بدا بدا بدا كل هدى، زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي بيدي، حتى دخل معها الشق فأبطأ عليهم، فقال لهم عمارة بن زياد: والله إن صاحبكم لو كان حيًّا لقد خرج إليكم بعد قالوا فادعوه باسمه، قال: فقالوا: إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه فدعوه باسمه، فخرج وهو آخذ برأسه فقال: ألم أنهكم أن تدعوني باسمي، فقد والله قتلتموني فادفنوني، فإذا مرت بكم الحمر فيها حمار أبتر فانبشوني، فإنكم تجدوني حيًّا، فدفنوه فمرت بهم الحمر فيها حمار أبتر، فقلنا: انبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه، فقال لهم عمارة: لا تنبشوه، لا والله لا تحدث مضر أن ننبش موتانا، وقد كان قال لهم خالد: إن في عكن امرأته لوحين، فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيها، فإنكم ستجدون ما تسألون عنه، قال: ولا يمسهما حائض، فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنهما، فأخرجتهما إليهم وهي حائض، فذهب ما كان فيهما من علم، قيل: هي من الأساطير الغريبة، ليس من سبيل لتصديقها والقبول بها.

قال سماك بن حرب: سُئل عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "ذاك نبي أضاعه قومه"، قال سماك: إن ابن خالد بن سنان أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "مرحبًا بابن أخي". فهذا السياق موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما، وليس فيه: أنه كان نبيًّا، والمرسلات التي فيها أنه نبي لا يحتج بها ها هنا، والأشبه أنه كان رجلًا صالحًا له أحوال وكرامات، فإنه إن كان في زمن الفترة، فقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أولى الناس بعيسى بن مريم أنا، لأنه ليس بيني وبينه نبي"، وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبيًّا، لأن الله تعالى قال: ﴿لِتُنذِرَ قَومًا مَا أَتَاهُم مِن نَذِيرٍ مِن قَبلِكَ﴾، وقد قال غير واحد من العلماء: إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل عليه السلام نبيًّا في العرب إلا محمدًا صلى الله عليه

وسلم خاتم الأنبياء، الذي دعا به ابراهيم الخليل باني الكعبة المكرمة التي جعلها الله تعالى قبلة لأهل الأرض شرعًا، وبشّرت به الأنبياء لقومهم، حتى كان آخر من بشّر به عيسى عليه السلام، وبهذا المسلك بعينه يرد ما ذكره السهيلي وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له: شعيب بن ذي مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين، وبعث إلى العرب أيضًا: حنظلة بن صفوان فكذبوهما، فسلّط الله على العرب بخت نصر، فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني إسرائيل، وذلك في زمن معد بن عدنان، والظاهر أن هؤلاء كانوا قومًا صالحين يدعون إلى الخير، والله تعالى أعلم[1].

([1]) انظر: البداية والنهاية ٢/٢٦٨.

المبحث الثامن

الاختلاف في نبوة أصحاب الكهف

الصحيح الذي لا ينبغي خلافه أن أصحاب الكهف ليسوا بأنبياء، وإن كان بعض العلماء قال: إنهم أنبياء، إلا أنه لا دليل على ذلك، بل بعض العلماء ينقل الإجماع على عدم نبوتهم[١]، وغاية ما منّ الله تعالى به عليهم أن قال عنهم: ﴿إِنَّهُم فِتيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدنَاهُم هُدًى. وَرَبَطنَا عَلَى قُلُوبِهِم﴾ [٢]، وكان من أمرهم أن طلبوا من الله تعالى أن يهيئ لهم من أمرهم رشدًا، وقد فعل، ولما اشتد الإيذاء لهم توجهوا إلى الكهف، ولو كانوا أنبياء لاستمروا مواجهين لقومهم؛ ومن المجازفة القول بأنهم لم يموتوا، ولن يموتوا إلا عند قيام الساعة، وأنهم سيكونون أنصارًا لعيسى عليه السلام عندما ينزل.

ومن بعض الآثار التي استدل بها أصحاب هذا القول: قول عوف بن مالك رضي الله عنه: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم – الحديث – وفيه أنه قال: "لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم حاجًّا ومعتمرًا، ويجعل الله حوارييه أصحاب الكهف والرقيم، فيمرون حجاجًا، فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا"[٣]، وفي صحيح مسلم في شأن نزول عيسى عليه السلام وحجه، ليس فيه ذكر أصحاب الكهف، وجاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصحاب الكهف أعوان المهدي"[٤]، وما جاء عن بعض السلف كمحمد

---

(١) انظر: تشنيف المسامع بجمع الجوامع ٧٩١/٤.

(٢) سورة الكهف: ١٣.

(٣) الحديث ضعيف جدًّا؛ لأنه من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو، وقد قال فيه علماء الجرح والتعديل: ركن من أركان الكذب.

(٤) أشار السيوطي في الدر المنثور إلى أن هذه الرواية أخرجها ابن مردويه في تفسيره، وليس ببعيد أن تكون مأخوذة من أهل الكتاب.

بن كعب القرظي كقوله في الكتب المنزلة: إن أصحاب الكهف يكونون في حوارييه، وأنهم يحجون معه، إذا صح عنه فهو من الإسرائيليات.

المبحث التاسع

الاختلاف في نبوة بلعم بن باعوراء

اختلف في بلعم بن باعور هذا[١]، فقيل: هو من مدينة الجبارين، وقيل: من أهل اليمن، وقيل: من الكعنانين، وهو: بلعم بن باعور بن سموم بن فرستم بن مآب بن لوط ابن هارون، أوتي العلم والحكمة. وقد اختلف أهل التأويل في الآيات التي كان أوتيها، قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَاتلُ عَلَيهِم نَبَأَ الَّذِي آتَينَاهُ آياتِنَا فَانسَلَخَ مِنهَا﴾[٢]، فقال بعضهم: كانت اسم الله الأعظم. قال السدي: إن الله لما انقضت الأربعون سنة، يعني: التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِم أَربَعِينَ سَنَةً﴾[٣]، بعث يوشع بن نون نبياً، فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي، وأن الله قد أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه، وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: "بلعم"، وكان عالمًا يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر، وأتى الجبارين، فقال: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون، وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء من عظمهن، فكان ينكح أتانًا له.

وقيل: كان لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، وقيل: بل الآيات التي كان أوتيها كتاب من كتب الله جل وعلا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في بني إسرائيل بلعم بن باعوراء أوتي كتابًا، وقال آخرون: بل كان أوتي النبوة. وعن مجاهد قال: هو نبي في بني إسرائيل –يعني: بلعم– أوتي النبوة، فرشاه قومه على أن يسكت، ففعل وتركهم على ما هم عليه. وروى المعتمر بن سليمان، عن أبيه، أنه سئل عن الآية: ﴿وَاتلُ عَلَيهِم نَبَأَ الَّذِي آتَينَاهُ آياتِنَا فَانسَلَخَ مِنهَا﴾[٤]، فحدّث عن سيار أنه كان رجلًا

---

(١) انظر في أخباره والاختلاف في نبوته: تفسير الطبري ٢٥٧/١٣، تفسير الرازي ٤٠٣/١٥، تفسير الخازن ٣١١/٢، الكامل لابن الأثير ١/ ٢٠٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٥.

(٣) سورة المائدة: ٢٦.

(٤) سورة الأعراف: ١٧٥.

يقال له: "بلعام"، وكان قد أوتي النبوة، وكان مجاب الدعوة، قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتلو على قومه خبر رجل كان الله آتاه حججه وأدلته، وهي الآيات، وكذلك الآيات إن كانت بمعنى الحجة التي هي بعض كتب الله تعالى التي أنزلها على بعض أنبيائه، فتعلمها الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية وعناه بها؛ فجائز أن يكون الذي كان أوتيها "بلعم"، وجائز أن يكون "أمية"، لأن "أمية" كان فيما يقال قد قرأ من كتب أهل الكتاب.

وإن كانت بمعنى كتاب أنزله الله تعالى على من أمر نبي الله عليه الصلاة والسلام أن يتلو على قومه نبأه، أو بمعنى اسم الله الأعظم، أو بمعنى النبوة، فغير جائز أن يكون معنيًّا به "أمية"؛ لأن "أمية" لا تختلف الأمة في أنه لم يكن أوتي شيئًا من ذلك، ولا خبر بأي ذلك المراد، وأي الرجلين المعني يوجب الحجة، فالصواب أن يقال فيه ما قال الله تعالى، ونقر بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من الله تعالى.

وأما قوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنهَا﴾، فإنه يعني: خرج من الآيات التي كان الله تعالى آتاها إياه فتبرأ منها، وبنحو ذلك قال أهل التأويل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزل موسى عليه السلام يعني بالجبارين ومن معه، أتاه – يعني بلعم – بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، فقال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي! فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله مما كان عليه، فذلك قوله: ﴿فَانسَلَخَ مِنهَا فَأَتبَعَهُ الشَّيطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ﴾. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان الله آتاه آياته فتركها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنهَا﴾ أي: نزع منه العلم. وقوله: ﴿فَأَتبَعَهُ الشَّيطَانُ﴾ أي: فصيره لنفسه تابعًا ينتهي إلى أمره في معصية الله تعالى، ويخالف أمر ربه في معصية الشيطان وطاعة الرحمن. وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ أي: فكان من الهالكين؛ لضلاله وخلافه أمر ربه، وطاعة الشيطان.

وأما القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَو شِئنَا لَرَفَعنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخلَدَ إِلَى الأَرضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[١]. فقد قيل فيها: ولو شاء الله جل وعلا لرفع هذا الذي آتاه آياته بآياته التي آتاها، ولكنه أخلد إلى الأرض، وسكن إلى الحياة الدنيا في الأرض، ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة واتبع هواه، ورفض طاعة الله تعالى وخالف أمره.

وكانت قصة هذا الذي وصف الله تعالى خبره في هذه الآية، على اختلاف من أهل العلم في خبره وأمره، ما قاله ابن عباس وابن مسعود ومجاهد رضي الله عنهم: نزلت هذه الآية في "بلعم بن باعوراء"، وذلك لأن موسى عليه السلام قصد بلده الذي هو فيه، وغزا أهله وكانوا كفارًا، فطلبوا منه أن يدعو على موسى عليه السلام وقومه، وكان مجاب الدعوة، وعنده اسم الله الأعظم فامتنع منه، فما زالوا يطلبونه منه حتى دعا عليه فاستجيب له، ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه، فقال موسى: يا رب بأي ذنب وقعنا في التيه، فقال: بدعاء بلعم، فقال: كما سمعت دعاءه عليّ، فاسمع دعائي عليه، ثم دعا موسى عليه أن ينزع منه اسم الله الأعظم والإيمان، فسلخه الله تعالى مما كان عليه ونزع منه المعرفة، فخرجت من صدره كحمامة بيضاء، فهذه قصته.

ويقال أيضًا: إنه كان نبيًّا من أنبياء الله تعالى، فلما دعا عليه موسى عليه السلام انتزع الله تعالى منه الإيمان وصار كافرًا. وقال عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وأبو روق: نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولًا في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو، فلما أرسل الله تعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام حسده، ثم مات كافرًا، ولم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "آمن شعره وكفر

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٦.

قلبه"، يريد أن شعره كشعر المؤمنين، وذلك أنه يوحد الله تعالى في شعره، ويذكر دلائل توحيده من خلق السموات والأرض وأحوال الآخرة والجنة والنار.

وقيل: نزلت في أبي عامر الراهب الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم الفاسق، والذي كان يترهب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام وأمر المنافقين باتخاذ مسجد ضرار، وأتى قيصر واستنجده على النبي صلى الله عليه وسلم، فمات هناك طريدًا وحيدًا، وهو قول سعيد بن المسيب. وقيل: نزلت في منافقي أهل الكتاب، كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قول الحسن والأصم. وقيل: هو عام فيمن عرض عليه الهدي فأعرض عنه، وهو قول قتادة وعكرمة وأبي مسلم.

فإن قال قائل: فهل يصح أن يقال: إن المذكور في هذه الآية كان نبيًّا، ثم صار كافرا؟ قلنا: هذا بعيد؛ لأنه تعالى ذكره قال: ﴿اللهُ أَعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسَالَتُهُ﴾[1]، وذلك يدل على أنه تعالى لا يشرف عبدًا من عبيده بالرسالة إلا إذا علم امتيازه عن سائر العبيد بمزيد الشرف والدرجات العالية والمناقب العظيمة، فمن كان هذا حاله فكيف يليق به الكفر؟!.

أما قوله تعالى: ﴿آتَينَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنهَا﴾، ففيه قولان: القول الأول: علمناه حجج التوحيد، وفهّمناه أدلته، حتى صار عالمًا بها فانسلخ منها، أي: خرج من محبة الله تعالى إلى معصيته، ومن رحمة الله تعالى إلى سخطه، ومعنى انسلخ: خرج منها، يقال: لكل من فارق شيئًا بالكلية انسلخ منه. والقول الثاني: بيّناها فلم يقبل وعري منها، وسواء قولك: انسلخ، وعري، وتباعد، وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة، وأقام على الكفر. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم مِن قَبلِ أَن نَّطمِسَ وُجُوهًا﴾[2]، وقال في حق فرعون: ﴿وَلَقَد

([1]) سورة الأنعام: ١٢٤.

([2]) سورة النساء: ٤٧.

أَرَينَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾[١]، وجائز أن يكون هذا الموصوف فرعون، فإنه تعالى أرسل إليه موسى وهارون عليهما السلام، فأعرض وأبى، وكان عاديًا ضالًّا متبعًا للشيطان.

وحاصل الفرق بين القولين: هو أن هذا الرجل في القول الأول، كان عالمًا بدين الله تعالى وتوحيده، ثم خرج منه، وعلى القول الثاني لما آتاه الله تعالى الدلائل والبينات امتنع من قبولها، والقول الأول أولى، لأن قوله تعالى: ﴿انسَلَخَ مِنهَا﴾ يدل على أنه كان فيها ثم خرج منها، وأيضًا فقد ثبت بالأخبار أن هذه الآية إنما نزلت في إنسان كان عالمًا بدين الله تعالى، ثم خرج منه إلى الكفر والضلال.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَتبَعَهُ الشَّيطَانُ﴾، ففيه وجوه: الأول: أتبعه الشيطان كفار الإنس وغواتهم، أي الشيطان جعل كفار الإنس أتباعًا له. والثاني: فأتبعه الشيطان، أي: أدركه، يقال: أتبعت القوم، أي: لحقتهم، ويقال: أتبعت القوم، مثال: أفعلت إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم، ويقال: ما زلت أتبعهم حتى أتبعتهم، أي: حتى أدركتهم.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الغَاوِين﴾، أي: أطاع الشيطان فكان من الظالمين. قال أهل المعاني: المقصود منه بيان أن من أوتي الهدى، فانسلخ منه إلى الضلال والهوى والعمى، ومال إلى الدنيا، حتى تلاعب به الشيطان كان منتهاه إلى البوار والردى، وخاب في الآخرة والأولى، فذكر الله تعالى قصته ليحذر الناس عن مثل حالته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَو شِئنَا لَرَفَعنَاهُ بِهَا﴾ قيل في معناه: ولو شئنا رفعناه للعمل بها، فكان يرفع بواسطة تلك الأعمال الصالحة منزلته، ولفظة: "لو" تدل على انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فهذا يدل على أنه تعالى قد لا يريد الإيمان، وقد يريد الكفر. وقالت المعتزلة: لفظ الآية يحتمل وجوهًا أخرى سوى هذا الوجه: فالأول: قال الجبائي: معناه: ولو شئنا لرفعناه بأعماله بأن نكرمه ونزيل التكليف عنه قبل ذلك

---

(١) سورة طه: ٥٦.

الكفر حتى نسلم له الرفعة، لكنا رفعناه بزيادة التكليف بمنزلة زائدة، فأبى أن يستمر على الإيمان. الثاني: لو شئنا لرفعناه، بأن نحول بينه وبين الكفر قهرًا وجبرًا، إلا أن ذلك ينافي التكليف، فلا جرم تركناه مع اختياره. والجواب عن الأول: أن حمل الرفعة على الإماتة بعيد، وعن الثاني: أنه تعالى إذا منعه منه قهرًا، لم يكن ذلك موجبًا للثواب والرفعة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخلَدَ إِلَى الأَرضِ﴾، قال أصحاب العربية: أصل الإخلاد: اللزوم على الدوام، وكأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومنه يقال: أخلد فلان بالمكان، إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن سويد:

بأبناء حي من قبائل مالك   وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولكنه أخلد إلى الأرض يريد: مال إلى الدنيا، وقال مقاتل: بالدنيا، وقال الزجاج: سكن إلى الدنيا. قال الواحدي: فهؤلاء فسّروا الأرض في هذه الآية بالدنيا، وذلك لأن الدنيا هي الأرض، لأن ما فيها من العقار والضياع وسائر أمتعتها من المعادن والنبات والحيوان مستخرج من الأرض، وإنما يقوى ويكمل بها، فالدنيا كلها هي الأرض، فصح أن يعبّر عن الدنيا بالأرض، ونقول: لو جاء الكلام على ظاهره لقيل لو شئنا لرفعناه، ولكنا لم نشأ، إلا أن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخلَدَ إِلَى الأَرضِ﴾ لما دل على هذا المعنى لا جرم أقيم مقامه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، ومعناه: أنه أعرض عن التمسك بما آتاه الله تعالى من الآيات واتبع الهوى، فلا جرم وقع في هاوية الردى، وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم، وذلك لأنه تعالى بعد أن خص هذا الرجل بآياته وبيناته، وعلمه الاسم الأعظم، وخصه بالدعوات المستجابة، لما اتبع الهوى انسلخ من الدين وصار في درجة الكلب، وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله في حقه أكثر، فإذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى، كان بعده عن الله جل وعلا أعظم، وإليه

الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: "من ازداد علمًا، ولم يزدد هدًى لم يزدد من الله إلا بعدًا"[١].

وبعد، فالذي يظهر لنا أن بلعم هذا لم يكن نبيًّا من قبل المولى عز وجل، ولكنه كان رجلًا قد آتاه الله علمًا، وكان فيما أوتي من العلم اسم الله الأعظم – فيما يذكرون–، الذي إذا دعي الله جل وعلا به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ثم صار إلى ما صار إليه.

---

(١) أورده المناوي في فيض القدير ٦/٥٢، برقم: (١٢١٧١).

المبحث العاشر

الاختلاف في نبوة مريم بنت عمران

السيدة مريم بنت عمران الصديقة، أم عيسى عليه السلام، ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخ دمشق أنها كانت بالربوة، قال: ويقال: إن قبرها بالنيرب، وذكر نسبها، وأنها من أولاد سليمان بن داود، بينها وبينه أربعة وعشرون أبًا، ثم روى أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[١]، حيث قالوا: هي أرض دمشق، واسم أم مريم: "حَنَّة"، بفتح الحاء المهملة وتشديد النون، وعن مجاهد قال: لما قيل: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾[٢] كانت تقوم حتى تورم قدماها، وفي رواية: تصلي حتى ترم قدماها، قال الحافظ: وبلغني أن مريم بقيت بعد رفع عيسى خمس سنين، وكان عمرها ثلاثًا وخمسين سنة[٣].

ويجدر بنا قبل الخوض في بيان اختلاف الناس في نبوتها، أن نبيّن بعضًا من فضائلها كما جاءت في القرآن والسنة، فمنها: قصتها من جهة حبلها من غير ذَكَر، وحصول الرطب الطري من الجذع اليابس، وحصول الرزق عندها في غير أوانه ومن غير حضور، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيهَا زَكَرِيَّا المِحرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزقًا قَالَ يَا مَريَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَت هُوَ مِن عِندِ اللهِ﴾[٤].

ومنها: أن الله تعالى خصها بما لم يؤته أحدًا من النساء، وذلك أن روح القدس كلّمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة، فليس هذا لأحد من النساء، وصدّقت بكلمات ربها ولم تسأل آية عندما بشّرت كما سأل زكريا عليه السلام من الآية، ولذلك سماها الله تعالى في تنزيله "صديقة"، قال سبحانه: ﴿وَأُمُّهُ

([١]) سورة المؤمنون: ٥٠.

([٢]) سورة آل عمران: ٤٣.

([٣]) انظر: تهذيب الأسماء واللغات ٢/٣٥٥.

([٤]) سورة آل عمران: ٣٧.

صِدِّيقَةٌ﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿وَصَدَّقَت بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَت مِنَ القَانِتِينَ﴾[٢]، فشهد لها بالصديقية، وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى، وشهد لها بالقنوت، وإنما بشر زكريا عليه السلام بغلام فلحظ إلى كبر سنه وعقامة رحم امرأته، فقال: أنّى يكون لي غلام وامرأتي عاقر، فسأل آية، وبشّرت مريم بالغلام فلحظت أنها بكر ولم يمسسها بشر، فقيل لها: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾[٣]، فاقتصرت على ذلك، وصدّقت بكلمات ربها، ولم تسأل آية ممن يعلم كنه هذا الأمر، ومن لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب[٤]؟!.

ولذلك رُوِيَ أن مريم سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة، فقد جاء في الخبر عنه صلى الله عليه وسلم: "لو أقسمت لبررت، لا يدخل الجنة قبل سابقي أمتي إلا بضعة عشر رجلًا، منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران"[٥]، وقد كان يحق على من انتحل علم الظاهر، واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"[٦]، وقوله أيضًا: "وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر"[٧]، فلم ينل هذا السؤدد في الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم في الباطن، وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله تعالى في التنزيل بالصديقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية[٨].

([١]) سورة المائدة: ٧٥.

([٢]) سورة التحريم: ١٢.

([٣]) سورة مريم: ٢١.

([٤]) انظر: تفسير الرازي ٨/٢١٧.

([٥]) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٣/٥٦، برقم: (١٣٦٨).

([٦]) أخرجه مسلم في باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم.

([٧]) أخرجه الترمذي في باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم.

([٨]) انظر: تفسير الرازي ٨/٢١٧.

ومنها: أن المولى عز وجل أخبر في كتابه بأنه اصطفاها، أي: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين، قال تعالى: ﴿وَإِذ قَالَتِ الملَائِكَةُ يَا مَريَمُ إِنَّ اللهَ اصطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالمينَ. يَا مَريَمُ اقنُتِي لِرَبِّكِ وَاسجُدِي وَاركَعِي مَعَ الرَّاكِعِين. ذَلِكَ مِن أَنبَاءِ الغَيبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم إِذ يُلقُونَ أَقلَامَهُم أَيُّهُم يَكفُلُ مَريَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم إِذ يَختَصِمُونَ﴾[١].

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة"[٢]، ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون"[٣]، فدل هذا الحديث على أن هؤلاء الأربع أفضل من النساء، وهذه الآيات دلت على أن مريم أفضل من الكل، وقول من قال: المراد أنها مصطفاة على عالمي زمانها، فهذا ترك للظاهر[٤]، ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٥]، ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[٦]، ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "أشعرت أن الله عز وجل زوّجني في الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وامرأة فرعون"[٧]، وقال

---

(١) سورة آل عمران: ٤٢-٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ﴿وَإِذ قَالَتِ الملَائِكَةُ يَا مَريَمُ إِنَّ اللهَ اصطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ...﴾.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/١٣٥، برقم: (١٢٤١٤).

(٤) انظر: تفسير الرازي ٨/٢١٧.

(٥) أورده المناوي في فيض القدير ٣/٤٩١، برقم: (٤٠٨٨).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل عائشة رضي الله عنها، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين.

(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/٢٥٨، برقم: (٨٠٠٦).

أيضًا: "ما من مولود إلا يطعن الشيطان في نُغض كتفه، إلا عيسى وأمه، فإن الملائكة حفت بهما"[١].

أما عن نبوتها فقد اختلف العلماء في ذلك[٢]، فقيل: كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملك، وقيل: لم تكن نبية وإنما كلّمها مثال بشر، ورؤيتها للملك كما رئي جبريل عليه السلام في صفة الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله عنه حين سؤاله للرسول صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان. ولقد لخص الرازي[٣] الكلام في اختلافهم هذا، ورجّح أنها ما كانت من الأنبياء، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيهِم مِن أَهلِ القُرَى﴾[٤]، وذكر أنه إذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها، وهو مذهب من يجوّز كرامات الأولياء، أو إرهاصًا لعيسى عليه السلام، وذلك جائز عند أهل السنة وعند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لزكريا عليه السلام، وهو قول جمهور المعتزلة، وأن من الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوحَينَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾[٥]. ونُقل عن الباقلاني قوله: لم يقم عندي من أدلة السمع في أمر مريم وجه قاطع في نفي نبوتها أو إثباتها.

وحكي أن القاضي عبد الجبار المعتزلي سأل نفسه فقال: إذا لم تكن نبية عندكم، وكان من قولكم أن الله تعالى لم يرسل إلى خلقه إلا رجالًا، فكيف يصح ذلك؟ وأجاب: أن ذلك إنما وقع في زمان زكريا عليه السلام وكان رسولًا، وكل ذلك

---

(١) أخرجه الحميدي في مسنده ٢/٢٣٣، برقم: (١٠٧٢).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية ٤/٩، تفسير القرطبي ١١/٩٠، تفسير ابن جزي ١/١٥٢، مسائل الاختلاف بين الأشاعرة والماتريدية ٧٠.

(٣) انظر: تفسير الرازي ٨/٢١٧.

(٤) سورة يوسف: ١٠٩.

(٥) سورة القصص: ٧.

كان عالمًا به، وهذا ضعيف؛ لأن المعجز إذا كان مفعولًا للنبي فأقل ما فيه أن يكون عليه السلام عالمًا به، وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع، فكيف يجوز جعله معجزًا له؟! بل الحق أن ذلك إما أن يكون كرامة لمريم أو إرهاصًا لعيسى عليه السلام[١].

وأجاب ابن السبكي[٢] عن قوله هذا، وقال: فإن قلت: لم لا يجوز أن تكون معجزة لزكريا أو يكون إرهاصًا لولدها عيسى عليهم السلام؟ قلت: لأن المعجزة تجب أن تكون بمشهد من الرسول والقوم حتى يقيم الدلالة عليهم، وما حكيناه من كراماتها -نحو: قول جبريل لها: وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًّا- لم يكن بحضور أحد، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مَنِ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾[٣]، وأيضًا فالمعجزة تكون بالتماس الرسول، وزكريا ما كان يعلم بحصول ذلك لقوله: أنى لكِ هذا.

وقد استدل من نفى نبوتها بأدلة كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾[٤]، فقد بيّنت الآية مرتبتها، حيث وردت هنا لبيان أعلى منزلة نالها عيسى عليه السلام ومريم عليها السلام المدعى فيهما الألوهية. قال ابن كثير[٥]: وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾، أي: مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها فدل على أنها ليست بنبية، كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى استدلالًا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[٦]، قالوا: وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور: أن الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلا من

---

(١) انظر: تفسير الرازي ٢١/٥٢٢.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢/٣٣٤.

(٣) سورة مريم: ٢٦.

(٤) سورة المائدة: ٧٥.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير ٣/١٥٨.

(٦) سورة القصص: ٧.

الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكِ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيهِم مِن أَهلِ القُرَى﴾[١].

ومما يدل على أنها غير نبية عندهم: أن الله تعالى قرن ذكرها مع آسية بنت مزاحم كما في آخر سورة التحريم، وكذا الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية"[٢]، وقرن ذكرها بزوجته خديجة بنت خويلد وبنته فاطمة رضي الله عنهما، كما دلت على ذلك أحاديث كثيرة ليس هذا محل بسطها.

وأيضًا: فإن هذه الخوارق التي حصلت لها إنما ذكرت لتعظيم شأنها، فيمتنع وقوعها كرامة لغيرها، ولا يجوز أن تكون إرهاصًا لعيسى عليه السلام؛ لأن الإرهاص أن يختص الرسول قبل رسالته بالكرامات، فأما ما يحصل به كرامة الغير لأجل أنه سيجيء بعد ذلك، فذلك هو الكرامة التي يدعيها، ولأنه لو جاز ذلك لجاز في كل معجزة ظهرت على يد مدعى الرسالة أن تكون إرهاصًا لنبي آخر يجيء بعد ذلك، وتجويز هذا يؤدى إلى سد باب الاستدلال بالمعجزة على النبوة، وقريب من قصة مريم قصة أم موسى عليه السلام وما كان من إلهام الله تعالى إياها حتى طابت نفسها بإلقاء ولدها في اليم ... إلى غير ذلك مما خصت به، أفترى ذلك سدى؟!. قال إمام الحرمين الجويني: ولم يصر أحد من أهل التواريخ ونقلة الأقاصيص إلى أنها كانت نبية صاحبة معجزة[٣].

وكذلك التمسك بقصة أصحاب الكهف، فإن لبثهم ثلاث مائة سنين وأزيد نيامًا أحياء من غير آفة مع بقاء القوة العادية بلا غذاء ولا شراب من جملة الخوارق ولم يكونوا أنبياء، فلم تكن معجزة، فتعيّن كونها كرامة. وادعى إمام الحرمين اتفاق

---

(١) سورة يوسف: ١٠٩.

(٢) سبق تخريجه من قبل.

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢/٣٣٥.

المسلمين على أنهم لم يكونوا أنبياء، وإنما كانوا على دين ملك في زمانهم يعبد الأوثان، فأراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام، ولم يكن ذلك عن دعوة داع دعاهم، ولكنهم لما وقفوا تفكروا وتدبروا ونظروا فاستبان لهم ضلال صاحبهم، ورأوا أن يؤمنوا بفاطر السموات والأرضين ومبدع الخلائق أجمعين، ولا يمكن أن يجعل ذلك معجزة لنبي آخر.

أما أولًا: فلأنهم أخفوه حيث قالوا: ولا يشعرن بكم أحدًا، والمعجزة لا يمكن إخفاؤها. وأما ثانيًا: فلأن المعجزة يجب العلم بها، وبقاءهم هذه المدة لا يمكن علم الخلق به؛ لأن الخلق لم يشاهدوه، فلا يعلم ذلك إلا بإخبارهم لو صح أنهم يعلمون ذلك، وإخبارهم بذلك إنما يفيد إذا ثبت صدقهم بدليل آخر وهو غير حاصل، وأما إثبات صدقهم بهذا الأمر فدور ممتنع؛ لأنه إنما يثبت هذا الأمر إذا ثبت صدقهم فلو توقف صدقهم عليه لدار.

وأما ثالثًا: فإنه ليس لذلك النبي ذكر ولا دليل يدل عليه، فإثبات المعجزة له لا فائدة فيه؛ لأن فائدة المعجزة التصديق وتصديق واحد غير معين محال. وأما رابعًا: فالتمسك بقصص شتى، مثل قصة آصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام في حمل عرش بلقيس إليه قبل أن يرتد إليه طرفه على قول أكثر المفسرين بأنه المراد بالذي عنده علم من الكتاب، وما قدمناه عن الصحابة وما تواتر عمن بعدهم من الصالحين وخرج عن حد الحصر[1].

وبالمقابل رجّح القرطبي المفسر نبوة مريم عليها السلام، واستشهد بحديث: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[2]. ثم ذكر أن الكمال عند العلماء هو التناهي والتمام، ويقال في ماضيه: "كمل" بفتح الميم وضمها،

([1]) انظر: طبقات السبكي ٢/٣٣٤.

([2]) سبق تخريجه من قبل.

ويكمل في مضارعة بالضم، وكمال كل شي بحسبه، والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة، ولا شك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياء، ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين. وإذا تقرر هذا قيل: إن الكمال المذكور في الحديث يعني به: النبوة، فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيتين، وقد قيل بذلك، فالصحيح عنده أن مريم نبية، والعلة في ذلك أن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين، ثم دعّم قوله هذا بحديث: "خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد"(١)، وحديث: "أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون"(٢).

وقد يستأنس بإثبات نبوة مريم بقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحصَنَت فَرجَهَا فَنَفَخنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلنَاهَا وَابنَهَا آيَةً لِلعَالَمِينَ﴾(٣)، لأنها ذكرت في هذه السورة مع الأنبياء فيشبه أن تكون منهم، وهو اختيار جماعة(٤)، قال السبكي الكبير: وقد مال خاطري إليه لهذه الإشارة، وإن كان المشهور خلافه، فإنا ما رأيناه في هذه السورة ذكر مع الأنبياء غيرهم، وهذه قرينة يستفاد منها ذلك، والله أعلم(٥). وقال في موضع آخر: ويشهد لنبوتها ذكرها في سورة الأنبياء معهم، وهو قرينة، وإن لم تكن نبية، فالأقرب أنها أفضل أيضًا، لذكرها في القرآن، وشهادته بصدّيقيتها(٦).

وكذلك استدل بعضهم بالأوصاف المشتركة بين يحيى عليه السلام ومريم،

---

(١) سبق تخريجه من قبل.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٩٣/١، برقم: (٢٦٦٨).

(٣) سورة الأنبياء: ٩١.

(٤) ومن منع تنبؤ النساء قال: ذكرت مريم لأجل عيسى عليه السلام، وناسب ذكرهما هنا قصة زكريا وزوجه ويحيى للقرابة التي بينهم. انظر: البحر المحيط في التفسير ٤٦٤/٧، ونظر كذلك: تفسير الألوسي ٨٤/٩.

(٥) انظر: فتاوى السبكي ٧٠/١، وانظر: فيض القدير ١٢٥/٤.

(٦) انظر: قضاء الأرب في أسئلة حلب ص ٢٣١.

حيث وصفه الله تعالى بقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَالِحِينَ﴾[١]، فأتى الوصف أولًا بالذي تبنى عليه الأوصاف بعده، وهو: التصديق الذي هو الإيمان، ثم ذكر السيادة، وهي الوصف الذي يفوق به قومه، ثم ذكر الزهادة وخصوصًا فيما لا يكاد يزهد فيه وذلك النساء، ثم ذكر الرتبة العليا وهي: رتبة النبوة، وفي هذه الأوصاف تشابه من أوصاف مريم، وذلك أن زكريا عليه السلام لما رأى ما اشتملت عليه مريم من الأوصاف الجميلة، وما خصها الله تعالى به من الخوارق للعادة، دعا ربه أن يهب له ذرية طيبة، فأجابه إلى ذلك، ووهب له يحيى على وفق ما طلب، فالتصديق مشترك بين مريم ويحيى، وكانت مريم سيدة بني إسرائيل بنص الحديث، وكان يحيى سيدًا، فاشتركا في هذا الوصف، وكانت مريم عذراء بتولًا لم يمسسها بشر، وكان يحيى لا يقرب النساء، وكانت مريم أتاها الملك رسولًا من عند الله تعالى وحاورها عن الله بمحاورات، حتى قيل أنها نبية، وكان يحيى نبيًّا، وحقيقة النبوة هو أن يوحي الله إليه، فقد اشتركا في هذا الوصف[٢].

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران"، استدل بهذا الحصر على أنهما "نبيتان"؛ لأن أكمل النوع الإنساني الأنبياء، ثم الأولياء والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين للزم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة، والواقع أن هذه الصفات في كثير منهن موجودة، فكأنه قال: ولم ينبأ من النساء إلا فلانة وفلانة، ولو قال: لم تثبت صفة الصديقية أو الولاية أو الشهادة إلا لفلانة وفلانة لم يصح؛ لوجود ذلك في غيرهن، إلا أن يكون المراد من الحديث كمال غير الأنبياء، فلا يتم الدليل على ذلك لأجل ذلك. وعلى هذا فالمراد من تقدم زمانه صلى الله عليه وسلم ولم يتعرض لأحد من نساء زمانه إلا لعائشة، وليس فيه تصريح بأفضلية عائشة رضي الله عنها على غيرها، لأن

([١]) سورة آل عمران: ٣٩.

([٢]) انظر: البحر المحيط في التفسير ١٣٤/٣.

فضل الثريد على غيره من الطعام إنما هو لما فيه من تيسير المؤنة وسهولة الإساغة، وكان أجل أطعمتهم يومئذ، وكل هذه الخصال لا تستلزم ثبوت الأفضلية له من كل جهة، فقد يكون مفضولًا بالنسبة لغيره من جهات أخرى.

وقد ورد من طريق صحيح ما يقتضي أفضلية خديجة وفاطمة على غيرهما، وذلك من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظ: "خير نسائها خديجة". وجاء في طريق آخر عند ابن حبان وأحمد وأبو يعلى والطبراني وأبو داود في كتاب الزهد والحاكم ما يقتضي أفضلية خديجة وفاطمة، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون". وللإمام أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد رفعه: "فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، إلا ما كان من مريم بنت عمران"، وإسناده حسن. وإن ثبت ففيه حجة لمن قال: إن آسية امرأة فرعون ليست نبية[١].

وقال الكرماني: لا يلزم من لفظ الكمال ثبوت نبوتها؛ لأنه يطلق لتمام الشيء وتناهيه في بابه، فالمراد: بلوغها النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، قال: وقد نقل الإجماع على عدم نبوة النساء كذا قال. وقد نقل عن الأشعري: أن من النساء من نبيء وهن ست: حواء، وسارة، وأم موسى، وهاجر، وآسية، ومريم، والضابط عنده: أن من جاءه الملك عن الله تعالى بحكم من أمر أو نهي أو بإعلام مما سيأتي فهو نبي، وقد ثبت مجيء الملك لهؤلاء بأمور شتى من ذلك من عند الله عز وجل، ووقع التصريح بالإيحاء لبعضهن في القرآن[٢].

واستدل بعضهم بقوله تعالى عنها: ﴿إِنَّ اللهَ اصطَفَاكِ﴾، على أنها كانت نبية، وليس بصريح في ذلك، وكذلك أيّد بذكرها مع الأنبياء في سورة مريم، ولا يمنع وصفها بأنها صديقة، فقد وصف يوسف عليه السلام بذلك، وقد نقل – كما سبق ذكره – عن

---

(١) انظر: فتح الباري ٦/٤٤٧.

(٢) انظر: فتح الباري ٦/٤٤٨.

الإمام الأشعري أن في النساء عدة نبيات، وحصرهن ابن حزم في ست: حواء وسارة وهاجر وأم موسى وآسية ومريم، وأسقط القرطبي سارة وهاجر، ونقله في التمهيد عن أكثر الفقهاء، ونقل النووي في كتابه "الأذكار" أن إمام الحرمين الجويني نقل الإجماع على أن مريم ليست نبية، وعن الحسن البصري: ليس في النساء نبية، ولا في الجن، وقال السبكي الكبير: لم يصح عندي في هذه المسألة شيء، ونقله السهيلي في آخر الروض عن أكثر الفقهاء[١].

واستدل كذلك على من قال بنبوة مريم بأن ظاهر القرآن الكريم والأحاديث النبوية يقتضي أن مريم عليها السلام أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، فإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله تعالى بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء، فهي إذًا نبية، والنبي أفضل من الولي، فهي أفضل من كل النساء: الأولين والآخرين مطلقًا، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية[٢]. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: ولا يشك أن لمريم فضلًا، وأنها أفضل من جميع نساء قريش إن ثبت أنها نبية، أو من أكثرهن إن لم تكن نبية، وقد تقدم بيان ذلك في المناقب في حديث: "خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة"، وأن معناها أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها[٣].

وقالوا في معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "خير نسائها مريم"، أي: نساء أهل الدنيا في زمانها، وليس المراد أن مريم خير نسائها؛ لأنه يصير كقولهم: زيد أفضل إخوانه. وقد صرحوا بمنعه، فهو كما لو قيل: فلان أفضل الدنيا، وقد رواه النسائي من حديث ابن عباس بلفظ: "أفضل نساء أهل الجنة"، فعلى هذا فالمعنى: خير نساء أهل الجنة مريم. وفي رواية: "خير نساء العالمين"، وهو كقوله تعالى: ﴿وَاصطَفَاكِ عَلَى

---

(١) انظر: فتح الباري ٦/٤٧١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٤/٨٣.

(٣) انظر: فتح الباري ٩/١٢٥.

نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾، وظاهره أن مريم أفضل من جميع النساء، وهذا لا يمتنع عند من يقول: إنها نبية، وأما من قال: ليست بنبية، فيحمله على عالمي زمانها، وبالأول جزم الزجاج وجماعة، واختاره القرطبي، ويحتمل أيضًا أن يراد: نساء بني إسرائيل، أو نساء تلك الأمة، أو من فيه مضمرة، والمعنى: أنها من جملة النساء الفاضلات، ويدفع ذلك حديث أبي موسى المتقدم بصيغة الحصر أنه لم يكمل من النساء غيرها وغير آسية[١].

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "وخير نسائها خديجة"، فإن المعنى منه: نساء هذه الأمة، قال القاضي أبو بكر بن العربي: خديجة أفضل نساء الأمة مطلقًا لهذا الحديث، وقد تقدم في آخر قصة موسى حديث أبي موسى في ذكر مريم وآسية، وهو يقتضي فضلهما على غيرهما من النساء، ودل هذا الحديث على أن مريم أفضل من آسية، وأن خديجة أفضل نساء هذه الأمة، وكأنه لم يتعرض في الحديث الأول لنساء هذه الأمة حيث قال: "ولم يكمل من النساء"، أي: من نساء الأمم الماضية، إلا إن حملنا الكمال على النبوة فيكون على إطلاقه، وعند النسائي بإسناد صحيح عن ابن عباس: "أفضل نساء أهل الجنة: خديجة وفاطمة ومريم وآسية". وعند الترمذي بإسناد صحيح عن أنس: "حسبك من نساء العالمين ... فذكرهن". وللحاكم من حديث حذيفة رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ملك، فبشّره أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة"[٢].

وعن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة"، قال القرطبي: الضمير عائد على غير مذكور، لكنه يفسره الحال والمشاهدة، يعني به: الدنيا. وقال الطيبي: الضمير الأول يعود على الأمة التي كانت فيها مريم، والثاني على هذه الأمة. قال: ولهذا كرر الكلام تنبيهًا على أن حكم كل واحدة منها غير حكم الأخرى. قلت: ووقع عند مسلم من رواية وكيع عن هشام في هذا الحديث

---

(١) انظر: فتح الباري ١٢٦/٩.

(٢) انظر: فتح الباري ١٢٦/٩.

وأشار وكيع إلى السماء والأرض، فكأنه أراد أن يبين أن المراد نساء الدنيا، وأن الضميرين يرجعان إلى الدنيا، وبهذا جزم القرطبي أيضًا[١].

وقال الطيبي: أراد أنهما خير من تحت السماء وفوق الأرض من النساء، قال: ولا يستقيم أن يكون تفسيرًا لقوله: "نسائها"؛ لأن هذا الضمير لا يصلح أن يعود إلى السماء، كذا قال، ويحتمل أن يريد أن الضمير الأول يرجع إلى السماء والثاني إلى الأرض، إن ثبت أن ذلك صدر في حياة خديجة، وتكون النكتة في ذلك أن مريم ماتت فعرج بروحها إلى السماء، فلما ذكرها أشار إلى السماء وكانت خديجة إذ ذاك في الحياة فكانت في الأرض، فلما ذكرها أشار إلى الأرض، وعلى تقدير أن يكون بعد موت خديجة، فالمراد أنهما خير من صعد بروحهن إلى السماء، وخير من دفن جسدهن في الأرض، وتكون الإشارة عند ذكر كل واحدة منهما[٢].

قال ابن حجر: والذي يظهر لي أن قوله: "خير نسائها" خبر مقدم، والضمير لمريم، فكأنه قال: مريم خير نسائها، أي: نساء زمانها، وكذا في خديجة، وقد جزم كثير من الشراح أن المراد: نساء زمانها؛ لما تقدم في أحاديث الأنبياء في قصة موسى وذكر آسية من حديث أبي موسى رفعه: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية"[٣]، فقد أثبت في هذا الحديث الكمال لآسية كما أثبته لمريم، فامتنع حمل الخيرية في حديث الباب على الإطلاق، وجاء ما يفسر المراد صريحًا، فروى البزار والطبراني من حديث عمار بن ياسر رفعه: "لقد فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين"، وهو من حديث حسن الإسناد، واستدل بهذا الحديث على أن خديجة أفضل من عائشة[٤].

---

(١) انظر: فتح الباري ٧/١٣٥.

(٢) انظر: فتح الباري ٧/١٣٥.

(٣) سبق تخريجه من قبل.

(٤) انظر: فتح الباري ٧/١٣٦.

قال ابن التين: ويحتمل أن لا تكون عائشة دخلت في ذلك؛ لأنها كان لها عند موت خديجة ثلاث سنين، فلعل المراد: النساء البوالغ، كذا قال. وهو ضعيف، فإن المراد بلفظ النساء أعم من البوالغ، ومن لم تبلغ أعم ممن كانت موجودة وممن ستوجد، وقد أخرج النسائي بإسناد صحيح، وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: "أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية"، وهذا نص صريح لا يحتمل التأويل. قال القرطبي: لم يثبت في حق واحدة من الأربع أنها نبية إلا مريم[١].

وقد أورد ابن عبد البر من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه: "سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية"، قال: وهذا حديث حسن يرفع الإشكال، قال: ومن قال: إن مريم ليست بنبية أوّل هذا الحديث وغيره بأن "من، وإن" لم تذكر في الخبر، فهي مرادة. قلت: الحديث الثاني الدال على الترتيب ليس بثابت، وأصله عند أبي داود والحاكم بغير صيغة ترتيب، وقد يتمسك بحديث الباب من يقول: إن مريم ليست بنبية لتسويتها في حديث الباب بخديجة، وليست خديجة بنبية بالاتفاق، والجواب: أنه لا يلزم من التسوية في الخيرية التسوية في جميع الصفات[٢].

والحاصل من هذه الأقوال أننا نرجح ما قاله جمهور العلماء بعدم نبوة السيدة مريم، لعدم ورود النص القطعي في ذلك، والاكتفاء بظاهر قوله تعالى:﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾، فقد جعلها الله تعالى بنص هذه الآية في مرتبة الصديقية.

---

(١) انظر: فتح الباري ١٣٦/٧.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣٧/٧.

المبحث الحادي عشر

الاختلاف في نبوة أم موسى

اختلف العلماء في اسمها، فقال السهيلي: واسم أم موسى: أيارخا. وقيل: أياذخت. وذكر الطبري أن اسمها: يوخابد، وقيل: كان اسمها أناحيد، وذكر القرطبي أن اسمها: لوخا بنت هاند بن لاوي بن يعقوب. وفي المعارف لابن قتيبة: أباحثة، وفي التوراة اسمها: يوخابث بنت لاوي بن يعقوب.

قال الله تعالى في كتابه العزيز حكاية عن أم موسى: ﴿وَأَوحَينَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنِ ارضِعِيهِ فَإِذَا خِفتِ عَلَيهِ فَأَلقِيهِ فِي اليَمِّ وِلَا تَخَافِي وَلَا تَحزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسَلِينَ. فَالتَقَطَهُ آلُ فِرعَونَ لِيَكُونَ لَهُم عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرعَونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ. وَقَالَت امرَأَةُ فِرعَونَ قُرَّةُ عَينٍ لِي وَلَكَ لَا تَقتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَو نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُم لَا يَشعُرُونَ﴾[١].

وقد اتفق الأكثرون من العلماء على أن أم موسى عليه السلام ما كانت من الأنبياء والرسل، فهذا الوحي وحي إلهام وإرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَوحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾[٢]، وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم الظاهري[٣] وغير واحد من المتكلمين، بل الصحيح الأول[٤]. فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحي في الآية الوحي الواصل إلى الأنبياء، وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والإمامة، بل عند الإمام الشافعي رحمه الله لا تمكّن من تزويجها نفسها، فكيف تصلح

([١]) سورة القصص: ٧ – ٩.

([٢]) سورة النحل: ٦٨ – ٦٩.

([٣]) قال ابن حزم في الفصل ٨/٤: فأما أم موسى وأم عيسى وأم إسحاق فالقرآن قد جاء بمخاطبة الملائكة لبعضهن بالوحي، وإلى بعض منهن عن الله عز وجل بالأنباء بما يكون قبل أن يكون، وهذه النبوة نفسها التي لا نبوة غيرها، فصحت –كما زعم– نبوتهن بنص القرآن.

([٤]) انظر: البداية والنهاية ٢٧٦/١.

للنبوة؟!. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَا قَبلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيهِم﴾ [١]، وهذا صريح في الباب.

وأيضًا فالوحي قد جاء في القرآن لا بمعنى النبوة، قال تعالى في حق الأولياء: ﴿وَإِذ أَوحَيتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ﴾[٢]، وأتى الوحي بمعنى الإلهام في حق البشر، كقوله تعالى: ﴿وَأَوحَينَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾[٣]، وفي حق سائر الحيوانات، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ﴾[٤]، ولكل واحد من هذه الأقسام معنى خاص[٥].

وقد اختلف العلماء في المراد بهذا الوحي في الآية السابقة على ستة وجوه[٦]:

أحدها: المراد: رؤيا رأتها أم موسى عليه السلام، وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام في التابوت وقذفه في البحر، وأن الله تعالى يرده إليها. ثانيها: أن المراد عزيمة جازمة وقعت في قلبها دفعة واحدة، فكل من تفكر فيما وقع إليه ظهر له الرأي الذي هو أقرب إلى الخلاص، ويقال لذلك الخاطر إنه وحي. ثالثها: المراد منه الإلهام، لكنا متى بحثنا عن الإلهام كان معناه خطور رأي بالبال وغلبة على القلب، فيصير هذا هو الوجه الثاني.

وهذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها: بأن الإلقاء في البحر قريب من الإهلاك، وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون، فكيف يجوز الإقدام على أحدهما لأجل الصيانة عن الثاني؟. وأجيب: لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها،

---

(١) سورة الأنبياء: ٧.

(٢) سورة المائدة: ١١١.

(٣) سورة القصص: ٧.

(٤) سورة النحل: ٦٨.

(٥) تفسير الرازي ٢٠/٢٣٦.

(٦) تفسير الرازي٢٢/٤٦.

فكان إفضاء الإلقاء في البحر إلى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد في يد فرعون.

رابعها: لعله أوحي إلى بعض الأنبياء في ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره، ثم إن ذلك النبي عرفها إما مشافهة أو مراسلة. واعترض عليه: بأن الأمر لو كان كذلك لما لحقها من أنواع الخوف ما لحقها. والجواب: أن ذلك الخوف كان من لوازم البشرية، كما أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان يأمره بالذهاب إليه مرارًا. خامسها: لعل الأنبياء المتقدمين كإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك وانتهى ذلك الخبر إلى تلك المرأة. سادسها: لعل الله تعالى بعث إليها ملكًا لا على وجه النبوة، كما بعث إلى مريم في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[١]. وأما قوله تعالى: ﴿مَا يُوحَى﴾، فمعناه: وأوحينا إلى أمك ما يجب أن يوحى، وإنما وجب ذلك الوحي لأن الواقعة واقعة عظيمة، ولا سبيل إلى معرفة المصلحة فيها إلا بالوحي، فكان الوحي واجبًا.

والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه وألقي في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب فإن الله تعالى سيرده إليك، وإن الله تعالى سيجعله نبيًّا مرسلًا، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط في طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون فالتقطه آل فرعون. قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُم عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[٢]. قال بعضهم: هذه لام العاقبة، وهو ظاهر إن كان متعلقًا بقوله تعالى: فالتقطه، وأما إن جعل متعلقًا بمضمون الكلام، وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، صارت اللام معللة كغيرها. ويقوي هذا التقدير الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرعَونَ وَهَامَانَ﴾[٣]،

([١]) سورة مريم: ١٧.

([٢]) سورة القصص: ٨.

([٣]) سورة القصص: ٨.

وهو الوزير السوء وجنودهما المتابعين لهما كانوا خاطئين، أي: كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف، وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى، وقيل: بل كانت عمته، كذا حكاه السهيلي.

وذكر ابن الأنباري في قوله: ﴿مَا يُوحَى﴾ وجهين[١]:

أحدهما: أن معناه: وأوحينا إلى أمك الذي يجوز أن يوحى إليها، والضرب الذي يمكن أن تكون مختصة به؛ لأنه ليس كل الأمور يصلح وحيها إليها، فكأنها اختصت بما يجوز أن يختص به أمثالها ممن ليس بنبي ولا رسول.

الثاني: أن مَا يُوحَى، أفاد في الآية توكيد أوحينا، كأنه قيل: أوحينا إلى أمك إيحاء.

وأود في نهاية هذا المبحث أن أذكر رأي ابن حزم الظاهري في نبوة النساء، حيث تعرض إلى هذه المسألة في كتابه الفصل وأثبت نبوتهن[٢]، وصرّح أن التنازع العظيم فيها حصل في زمانه بقرطبة في بلاد الأندلس، فإن طائفة من العلماء ذهبوا إلى إبطال كون النبوة في النساء جملة، وبدعت من قال ذلك، وذهب طائفة أخرى إلى القول بأنه قد كانت في النساء نبوة، وذهبت طائفة ثالثة إلى التوقف في ذلك. ثم قال: ما نعلم للمانعين من ذلك حجة أصلًا، إلا أن بعضهم نازع في ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيهِم﴾[٣]، وهذا أمر لا ينازعون فيه، ولم يدع أحد أن الله تعالى أرسل امرأة، وإنما الكلام في النبوة دون الرسالة.

---

(١) انظر: البسيط للواحدي ١٤/٣٩٣.

(٢) انظر: الفصل ٥/١٢ وما بعدها.

(٣) سورة يوسف: ١٠٩.

وكلامه هذا يوافق ما أثبته ابن فورك عن الإمام الأشعري، حيث ذكر أنه قال: إنه قد كان في النساء أربع نبيات، ولم يكن فيهن رسول، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيهِم﴾[١]، مع قوله عليه السلام: "كان في النساء أربع نبيات"، وكان يقول: إن الرسول هو من يُرسَلُ إلى الخلق ويوجب عليه تبليغ الرسالات، ويؤمر الخلق بطاعته وإتباع أمره، وقد يكون نبيًا ولا يكون قد أرسل ولا أمر بأداء الرسالة، وذلك بإبانة حاله من غيره بكرامات يُخصّ بها حتى ترتفع منزلته بذلك وتشرف. وكذلك كان يقول: إنه لا يجوز أن يكون رسول امرأة، ولا أن يكون عبدًا ولا ناقص الحس، فأما المرأة فلنقصان عقلها، والعبد فلتعلقه بمِلك مولاه، وكمال الحواس لأجل الحاجة إليها في أداء الرسالة وما يتعلق بها[٢].

ونعود إلى كلام ابن حزم، حيث بيّن بعد ذلك أن طلب الحق في ذلك يجب أن يكون في النظر في معنى لفظة النبوة في اللغة التي خاطبنا الله تعالى بها، فإنا وجدنا هذه اللفظة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام، فمن أعلمه الله تعالى بما يكون قبل أن يكون أو أوحي إليه منبئًا له بأمر ما فهو نبي بلا شك، وليس هذا من باب الإلهام الذي هو طبيعة، كقول الله تعالى: وَأَوحَى رَبُّكَ إِلى النَّحلِ، ولا من باب الظن والتوهم الذي لا يقطع بحقيقته إلا مجنون، ولا من باب الكهانة التي هي من إستيراق الشياطين للسمع من السماء فيرمون بالشهب الثاقب، وفيه يقول تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعضُهُم إِلَى بَعضٍ زُخرُفَ القَولِ غُرُورًا﴾[٣]. وقد انقطعت الكهانة بمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا من باب النجوم التي هي تجارب نتعلم، ولا من باب الرؤيا التي لا يدري أصدقت أم كذبت، بل الوحي الذي هو النبوة قصد من الله تعالى إلى إعلام من يوحي إليه بما يعلمه به، ويكون عند الوحي به إليه حقيقة خارجة عن

---

(١) سورة يوسف: ١٠٩.

(٢) انظر: مجرد مقالات الأشعري ص ١٧٤.

(٣) سورة الأنعام: ١١٢.

الوجوه المذكورة، يحدث الله تعالى لمن أوحى به إليه علمًا ضروريًّا بصحة ما أوحي به، كعلمه بما أدرك بحواسه وبديهة عقله سواء لا مجال للشك في شيء منه، إما بمجيء الملك به إليه، وإما بخطاب يخاطب به في نفسه، وهو تعليم من الله تعالى لمن يعلمه دون وساطة معلم، فإن أنكروا أن يكون هذا هو معنى النبوة فليعرفوا ما معناها، فإنهم لا يأتون بشيء أصلًا.

وقد ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أرسل الملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، فبشروا أم إسحاق بإسحاق عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَامرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَت فَبَشَّرنَاهَا بِإِسحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسحَاقَ يَعقُوب. قَالَت يَا وَيلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعلِي شَيخًا إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعجَبِينَ مِن أَمرِ اللهِ رَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيكُم أَهلَ البَيتِ﴾[1]، فهذا خطاب الملائكة لأم إسحاق عن الله تعالى بالبشارة لها بإسحاق ثم يعقوب، ثم بقولهم لها: أتعجبين من أمر الله؟، ولا يمكن البتة أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام يخاطبها وقال لها: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًّا، فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى إليها، وكان زكريا عليه السلام يجد عندها من الله تعالى رزقًا واردًا تمنى من أجله ولدًا فاضلًا، ووجدنا أم موسى عليهما السلام قد أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم، وأعلمها أنه سيرده إليها ويجعله نبيًّا مرسلًا، فهذه نبوة لا شك فيها.

وبضرورة العقل يدري كل ذي تمييز صحيح أنها لو لم تكن واثقة بنبوة الله تعالى لها لكانت بإلقائها ولدها في اليم برؤيا تراها، أو بما يقع في نفسها، أو قام في هاجسها في غاية الجنون والمرار الهائج، ولو فعل ذلك أحدنا لكان في غاية الفسق أو في غاية الجنون، فصح يقينًا أن الوحي الذي ورد لها في إلقاء ولدها في اليم كالوحي الوارد على إبراهيم عليه السلام في الرؤيا في ذبح ولده، فإن إبراهيم عليه

---

(1) سورة هود: ٧١-٧٣.

السلام لو لم يكن نبيًّا واثقًا بصحة الوحي والنبوة الوارد عليه من ذبح ولده؛ لما أقدم على ذبح ولده لرؤيا رآها أو ظن وقع في نفسه، ولكان بلا شك فاعل ذلك من غير الأنبياء فاسقًا في نهاية الفسق أو مجنونًا في غاية الجنون، هذا ما لا يشك فيه أحد من الناس، فصحت نبوتهن بيقين، ووجدنا الله تعالى قد قال – وقد ذكر من الأنبياء عليهم السلام في سورة "كهيعص" ذكر مريم في جملتهم –: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّن حَمَلنَا مَعَ نُوحٍ﴾[١]، وهذا هو عموم لها معهم لا يجوز تخصيصها من جملتهم. وليس قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾[٢] بمانع من أن تكون نبية، فقد قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[٣]، وهو مع ذلك نبي رسول، وهذا ظاهر.

ويلحق بهن عليهن السلام في ذلك: امرأة فرعون، بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون"[٤]، والكمال في الرجال لا يكون إلا لبعض المرسلين عليهم السلام؛ لأن من دونهم ناقص عنهم بلا شك، وكان تخصيصه صلى الله عليه وسلم مريم وامرأة فرعون تفضيلًا لهما على سائر من أوتيت النبوة من النساء بلا شك؛ إذ من نقص عن منزلة آخر ولو بدقيقة لم يكمل، فصح بهذا الخبر أن هاتين المرأتين كملتا كمالًا لم يلحقهما فيه امرأة غيرهما أصلًا، وإن كن بنصوص القرآن نبيات، وقد قال تعالى: ﴿تِلكَ الرُّسُلُ فَضَّلنَا بَعضَهُم عَلَى بَعضٍ﴾[٥]، فالكامل في نوعه هو الذي لا يلحقه أحد من أهل نوعه، فهم من الرجال الرسل الذين فضلهم الله تعالى على سائر

([١]) سورة مريم: ٥٨.

([٢]) سورة المائدة: ٧٥.

([٣]) سورة يوسف: ٤٦.

([٤]) سبق تخريجه من قبل.

([٥]) سورة البقرة: ٢٥٣.

الرسل، ومنهم نبينا وإبراهيم عليهما السلام بلا شك للنصوص الواردة بذلك في فضلها على غيرهما، وكمل من النساء من ذكر عليه الصلاة والسلام.

المبحث الثاني عشر

الاختلاف في نبوة آسية امرأة فرعون

من رواية الطبري: كانت امرأة فرعون تعذّب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة. وروى أيضًا: كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون فقالت: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح. فقولها: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة، قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار. وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع، ونجني من فرعون وعمله، أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله، ونجني من القوم الظالمين، وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها[١].

وعن أبي العالية قال: كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون، فوقع المشط من يدها، فقالت: تعس من كفر بالله؟ فقالت لها ابنة فرعون: ولك رب غير أبي؟ قالت: ربي ورب أبيك ورب كل شيء "الله". فلطمتها بنت فرعون وضربتها، وأخبرت أباها، فأرسل إليها فرعون فقال: تعبدين ربًّا غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك ورب كل شيء "الله"، وإياه أعبد، فعذّبها فرعون وأوتد لها أوتادًا، فشدّ رجليها ويديها وأرسل عليها الحيات، وكانت كذلك، فأتى عليها يومًا فقال لها: ما أنت منتهية؟ فقالت له: ربي وربك ورب كل شيء "الله". فقال لها: إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلي. فقالت له: اقض ما أنت قاض، فذبح ابنها في فيها، وإن روح ابنها بشّرها، فقال لها: أبشري يا أمه، فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا، فصبرت ثم أتى عليها فرعون يومًا آخر، فقال لها مثل ذلك،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١٧٢/٨.

فقالت له مثل ذلك، فذبح ابنها الآخر في فيها، فبشّرها روحه أيضًا، وقال لها: اصبري يا أمه، فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا، قال: وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر، فآمنت امرأة فرعون، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون، وكشف الغطاء عن ثوبها ومنزلتها وكرامتها في الجنة لامرأة فرعون، حتى رأت فازدادت إيمانًا ويقينًا وتصديقًا، فاطلع فرعون على إيمانها، فقال للملأ: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها، فقال لهم: إنها تعبد غيري، فقالوا له: اقتلها، فأوتد لها أوتادًا فشد يديها ورجليها، فدعت آسية ربها فقالت: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة، فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها، إنا نعذبها وهي تضحك، فقبض الله روحها رضي الله عنها[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض أربعة خطوط، وقال: "أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون"[٢]. وثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[٣].

وذكر القرطبي[٤] أن آسية آمنت بموسى، وقيل: هي عمة موسى آمنت به. قال أبو العالية: اطلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ، فقال لهم: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها، فقال لهم: إنها تعبد ربًّا غيري، فقالوا له: أقتلها، فأوتد لها أوتادًا وشد يديها ورجليها، فقالت: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة، ووافق

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٨/١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٩٣/١. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٣/٩: رجاله رجال الصحيح.

(٣) سبق تخريجه من قبل.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ٢٠٣/١٨.

ذلك حضور فرعون، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها! إنا نعذبها وهي تضحك، فقبض روحها. وقال سلمان الفارسي فيما روى عنه عثمان النهدي: كانت تعذّب بالشمس، فإذا أذاها حر الشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها، وقيل: سمر يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رحى، فأطلعها الله، حتى رأت مكانها في الجنة، وقيل: لما قالت: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة، أريت بيتها في الجنة يبنى، وقيل: إنه من درة. وعن الحسن: لما قالت: "ونجني" نجاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتنعم. ومعنى: من فرعون وعمله: تعني بالعمل: الكفر، وقيل: من عمله: من عذابه وظلمه وشماتته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الجماع. ونجني من القوم الظالمين، قال الكلبي: أهل مصر، وقال مقاتل: القبط، وقال الحسن وابن كيسان: نجاها الله أكرم نجاة ورفعها إلى الجنة، فهي فيها تأكل وتشرب.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "خير نسائها: مريم بنت عمران، وخير نسائها: خديجة بنت خويلد" وقد أشار وكيع إلى السماء والأرض، قيل: أنه أراد بهذه الإشارة تفسير الضمير في نسائها، وأن المراد به: جميع نساء الأرض، أي: كل من بين السماء والأرض من النساء، والأظهر أن معناه: أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه. قال القاضي عياض: ويحتمل أن المراد أنهما من خير نساء الأرض، والصحيح الأول. وقوله صلى الله عليه وسلم: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون"[1]، يقال: كمل: بفتح الميم وضمها وكسرها ثلاث لغات مشهورات، والكسر ضعيف. قال القاضي عياض: هذا الحديث يستدل به من يقول بنبوة النساء، ونبوة آسية ومريم، والجمهور على أنهما ليستا نبيتين، بل هما صديقتان ووليتان من أولياء الله تعالى، ولفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه، والمراد هنا: التناهي في جميع

([1]) سبق تخريجه من قبل.

الفضائل وخصال البر والتقوى. قال القاضي عياض: فإن قلنا: هما نبيّتان، فلا شك أن غيرهما لا يلحق بهما، وإن قلنا: وليتان، لم يمتنع أن يشاركهما من هذه الأمة غيرهما، هذا كلام القاضي عياض، ثم قال النووي: وهذا الذي نقله من القول بنبوتهما غريب ضعيف، وقد نقل جماعة الإجماع على عدمها[١].

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة" فقد أشار وكيع إلى السماء والأرض، كأنه يفسر ضمير الهاء في "نسائها"، أنه يريد الدنيا والأرض، وذكره لهما بذلك يحتمل أن يريد أن كل واحدة خير نساء أهل الأرض في وقتها، أو أنها من خير نسائها وأفضلهن، وإن كانت المزايا بعد بينهما وبين غيرهما ممن هو خير النساء متفاضلة. وقوله: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران"[٢]، يستدل به من يقول بنبوة النساء ونبوة آسية ومريم، والأكثر على أنهما صديقتان ووليتان من أولياء الله تعالى، والكمال المتناهي للشيء وتمامه في بابه. والمراد هاهنا: التناهي في جو الفضائل وخصال البر والتقوى. يقال: منه كمل وكمل، بالفتح والضم، وليس يشعر الحديث بأنه لم يكمل ولا يكمل ممن يكون في هذه الأمة غيرهما. فإذا قلنا بنبوتهما أو سلمنا ذلك لقائله، فلا شك أنه لا يلحق درجتهما في النبوة غيرهما، وإذا قلنا: إنهما صديقتان، لم يمنع أن يكمل من هذه الأمة غيرهما[٣].

وجاء في طريق أخرى ما يقتضي أفضلية خديجة وفاطمة، وذلك فيما أخرجه ابن حبان وأحمد وأبو يعلى والطبراني وأبو داود في كتاب الزهد والحاكم كلهم من طريق موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/١٩٨.

(٢) سبق تخريجه من قبل.

(٣) انظر: إكمال المعلم ٧/٤٤٠.

محمد، ومريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون". وله شاهد من حديث أبي هريرة في الأوسط للطبراني ولأحمد من حديث أبي سعيد رفعه: "فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، إلا ما كان من مريم بنت عمران"، وإسناده حسن، وإن ثبت ففيه حجة لمن قال: إن آسية امرأة فرعون ليست نبية. قال القرطبي: الصحيح أن مريم نبية؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك، وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوتها[1].

ومما تقدم ظهر جليًّا أن قول الجمهور هو الصواب، وهو أن السيدة آسية لم تكن نبية، ولم يصح عندنا في ذلك شيء، ولكنها كانت امرأة صديقة، بشّرها المولى عز وجل بنص القرآن الكريم ببيت في الجنة.

(1) انظر: فتح الباري ٦/٤٤٧.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، لا بد لنا في نهاية هذه الدراسة التي كانت حول الأشخاص المختلف في نبوتهم في ضوء الكتاب والسنة أن نوضح أهم النتائج التي توصلنا إليها، وفيها تبيّن ثمار البحث:

١- إثبات نبوة ذي الكفل عليه السلام، لكونه تعالى قرن ذكره في القرآن بذكر إسماعيل وإدريس عليهما السلام، والغرض من ذلك ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم، وذلك يدل على نبوته ومكانته عند ربه جل وعلا.

٢- اتفاق الأكثرين على أن لقمان عليه السلام كان حكيمًا، وأنه لا دليل على نبوته، لكونه لم يذكر في النصوص باسم النبوة ولا مع الأنبياء، وهذا هو الراجح بعد ما حررنا القول فيه.

٣- أن ذا القرنين هو أحد ملوك الأرض، مد الله تعالى له في الأجل، وأثنى عليه بالعدل، ونصره حتى قهر البلاد، واحتوى على الأموال، وفتح المدائن، وجال في البلاد والقلاع، فسار حتى أتى المشرق والمغرب، ولم تثبت نبوته ألبتة عند علماء الأمة.

٤- اختلاف المفسرين والمؤرخين في حال الخضر عليه السلام على ثلاثة أقوال مشهورة: الأول: أنه ملك من الملائكة، يتصور في صور الآدميين، وهو باطل. والثاني: أنه ولي من أولياء الله تعالى، وهو قول مرجوح. والثالث -وهو الراجح-: أنه نبي من أنبياء الله تعالى، وهو قول جمهور العلماء.

٥- أن المشهور من أقوال علماء المسلمين أن عزيرًا عليه السلام نبي من أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى عليهم السلام،

وأنه لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة فألهمه الباري جل وعلا حفظها، فسردها على بني إسرائيل.

٦- أنه ليس في كلام الله جل وعلا، ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم، بل ولا عن أصحابه الكرام خبر بأن الله تعالى نبّأ إخوة يوسف عليه السلام، وأن أفعالهم تشهد أنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم، فكيف يكونوا أنبياء؟ ولكن الرسولَيْن أباهم وأخاهم قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم.

٧- أنه لم تثبت نبوة خالد بن سنان العبسي لدى علماء الأمة، والأشبه أنه كان رجلًا صالحًا له أحوال وكرامات، وأنه كان في زمن الفترة -التي كانت بين عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام-.

٨- الصحيح الذي لا ينبغي خلافه أن أصحاب الكهف ليسوا بأنبياء، وإن كان بعض العلماء قال: إنهم أنبياء، إلا أنه لا دليل على ذلك، بل بعض العلماء ينقل الإجماع على عدم نبوتهم.

٩- ظهر لنا أن بلعم بن باعوراء لم يكن نبيًّا، ولكنه كان رجلًا قد آتاه الله تعالى علمًا، وكان فيما أوتي من العلم اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي الله جل وعلا به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ثم صار إلى ما صار إليه.

١٠- أن الحاصل من أقوال السلف عدم إثبات نبوة السيدة مريم عليها السلام، لعدم ورود النص القطعي في ذلك، والاكتفاء بظاهر قوله تعالى: ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾، فقد جعلها الله تعالى بنص هذه الآية في مرتبة الصديقية، وأن الوحي الذي أنزل على أم موسى -كما ذكر الأكثر- وحي إلهام وإرشاد، ولم يثبت كونها نبية، وأن السيدة آسية لم تكن نبية، ولكنها كانت امرأة صديقة، بشّرها الله تعالى ببيت في الجنة.

وختامًا: نسأل الله تعالى أن يتقبل منا عملنا هذا، ويختم لنا بالحسنى،

فهرس المصادر والمراجع

- الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم الشيباني، دار الراية بالرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م، تحقيق: باسم فيصل الجوابرة.
- الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل للدكتور الحاج محمد وصفي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، بعناية بسام عبد الوهاب الجابي.
- الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ليوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي.
- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه لمحمد بن إسحاق الفاكهي، دار خضر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأبي العباس شهاب الدين القسطلاني، المطبعة الأميرية الكبرى، الطبعة السابعة، ١٣٢٣هـ.
- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين بن أحمد مصطفى، دار الإرشاد بحمص، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ.
- أعلام النبوة لعلي بن محمد الماوردي، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الأولى،

١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

- البداية والنهاية لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، تحقيق: علي شيري.
- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، تحقيق: صدقي محمد.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين الفيروز آبادي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، تحقيق: محمد علي النجار.
- تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- تاريخ دمشق لعلي بن الحسن بن هبة الله، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، تحقيق: عمرو بن غرامة.
- تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري، دار التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لأبي العلا المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي، دار الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، تحقيق: عبد الله الخالدي.
- التفسير البسيط لأبي الحسن الواحدي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- تفسير جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى.

- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة الأولى، تحقيق: زكريا عميران.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير القرشي، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- تفسير محمد ثناء الله المظهري، مكتبة الرشدية، باكستان، ١٤١٢هـ.
- تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، مكتبة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، تحقيق: سيد عبد العزيز وعبد الله ربيع.
- تهذيب الأسماء واللغات لمحيي الدين النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر النمري القرطبي، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، تحقيق: فواز أحمد زمرلي.
- جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن عبد الرحمن الإيجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- جامع المسائل لابن تيمية الحراني، عالم الفوائد، الطبعة الأولى،

١٤٢٢هـ، تحقيق: محمد عزيز شمس.

- الدر المنثور لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لأبي القاسم السهيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي.
- زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة.
- الزهر النضر في حال الخضر لابن حجر العسقلاني، مجمع البحوث الإسلامية، نيودلهي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، تحقيق: صلاح مقبول أحمد.
- سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، تحقيق: بشار عواد معروف.
- شرح مختصر خليل لمحمد بن عبد الله الخرشي، دار الفكر، بيروت.
- شرح صحيح مسلم ليحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢م، الطبعة الثانية.
- شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، تحقيق: صالح موسى شرف.
- صحيح محمد بن إسماعيل البخاري، دار طوق النجاة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، تحقيق: محمد زهير الناصر.
- صحيح مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي،

بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

- صحيح محمد بن حبان بن أحمد التميمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.
- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي، دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، تحقيق: د. محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو.
- عيون المناظرات لأبي علي عمر السكوني، تحقيق: سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٦م.
- فتاوى تقي الدين السبكي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، تحقيق: حسام الدين القدسي.
- الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي الأنصاري، دار الفكر.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، تحقيق: محب الدين الخطيب.
- فتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان القنوجي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢هـ.
- الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع الديلمي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- قصص الأنبياء لابن كثير القرشي، دار التأليف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، تحقيق: مصطفى عبد الواحد.
- قضاء الأرب في أسئلة حلب لتقي الدين السبكي، المكتبة التجارية،

مكة المكرمة، تحقيق: محمد عالم.

- الكامل في ضعفاء الرجال لعبد الله بن عدي الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، تحقيق: أبو محمد ابن عاشور.
- لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين الخازن، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري لمحمد بن الحسن بن فورك، دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق: دانيال جيماريه.
- محاسن التأويل لجمال الدين محمد القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، تحقيق: محمد باسل عيون السود.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي.
- مسائل الاختلاف بين الأشاعرة والماتريدية لابن كمال باشا، دار الفتح، عمّان، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، شرح: سعيد عبد اللطيف فودة.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، تحقيق: مقبل بن هادي الوادعي.
- مسند أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة.
- مسند أبي بكر الحميدي، دار السقا، دمشق، الطبعة الأولى،

١٩٩٦م، تحقيق: حسن الداراني.

- المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، تحقيق: كمال يوسف الحوت.
- مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- المعارف لابن قتيبة الدينوري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، تحقيق: ثروت عكاشة.
- المعجم الكبير لأبي القاسم الطبراني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا.
- النكت والعيون لعلي بن محمد الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم.
- هداية المريد لجوهرة التوحيد لبرهان الدين إبراهيم اللقاني، دار البصائر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، تحقيق: مروان حسين البجاوي.